

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للبنجاح الغزنوي من الدولة الإسلامية

د. يوسف بن أحمد حوالة

تظل كتب الجغرافيا الإسلامية التراثية، شاهداً بارزاً على مقدار اسهام العرب والمسلمين في هذا الجانب المعرفي من الحركة العلمية. وحين تذكر الرحلات الجغرافية تقفز إلى الذاكرة مجموعة من الأسماء اللامعة التي تعد حقيقة علامات بارزة في هذا المجال.

ويعد محمد بن حوقل النصيبي، أو الموصل، أو البغدادي^(١)، وذلك بحسب اختلاف الروايات في تعيين مسقط رأسه واحداً من أشهر هؤلاء الجغرافيين الرحالة الذين أفرزتهم العصور الإسلامية الزاهية. وابن حوقل، وبهذا اشتهر^(٢)، لا تعرف

(١) انظر ترجمته لدى: خير الدين الزركلي: الأعلام، منشورات دارا لعلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م، ٨ مجلدات، المجلد السادس، ص: ١١١، مع الحاشية التي تشير إلى مصادر الترجمة - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين - تراجم مصنف الكتب العربية، منشورات دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دون ذكر لرقم الطبعة ولا سنة الطبع، ١٥ مجلداً، المجلد ١١، ص: ٥، مع الحاشية التي تشير إلى مصادر الترجمة كذلك.

(٢) لم تكن المصادر والمراجع التي ترجمت لابن حوقل بتفسير هذا اللقب الذي اشتهر به ابن حوقل، كما هو الشأن في تفسير ألقاب العلماء والمؤلفين وغيرهم من الأعلام. ولسنا نجد في كتب اللغة التي أشارت إلى مادة: حَقَلَ، والمعاني التي تعنيها من قريب أو بعيد إلى التصاقها بالجغرافي الرحالة ابن حوقل. وعلى كل حال: فالحوقل في اللغة: اعتمد بيديه على خصره. والحوقلة: سرعة المشي ومقاربة الخطو. والحوقل: الشيخ المسن، وغير ذلك من المعاني.

انظر مثلاً: ابن منظور (ت ٧١١هـ): لسان العرب، منشورات دار صادر، دون ذكر سنة الطبع، ١٥ مجلداً، المجلد ١١، ص: ١٦١.

ولادته، ولا وفاته على وجه اليقين، وإن كان يظن أن وفاته كانت بعد سنة ٣٦١هـ^(٣). وفي مدينتي نصيبين، ثم بغداد، تلقى علومه الأولى، ولقد اتضحت ميوله العلمية في سن مبكرة متجهة نحو علم الجغرافيا، ذلك أنه طالع عدداً من كتب الجغرافيين المسلمين، فشغف بها، مما عمق في نفسه فيما بعد حب الرحلة الجغرافية. وعلاوة على ذلك كان اشتغاله بالتجارة ومزاولته لها، سبباً في تزايد حب الترحل والتجوال لديه. ومن هنا، فقد قام برحلات طويلة، استغرقت منه نحواً من ثلاثين عاماً، طاف خلالها معظم أقطار العالم الاسلامي آنذاك.

بدأ ابن حوقل رحلاته في سنة ٣٣١هـ، حيث جاب أولاً قطره: العراق، ثم عرّج على ايران، ومنها إلى بلاد الهند، ثم عاد، فاتجه إلى بلاد العرب، وتحديداً الأحساء، ثم إلى بلاد الشام، ثم مصر. ويُم بعد ذلك وجهه نحو غربي الدولة الإسلامية، فزار بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي، ثم الأندلس، ثم قام أخيراً بزيارة لجزيرة صقلية إبان وجود المسلمين بها حدود سنة ٣٦٢هـ^(٤).

(٣) اختلف في سنة وفاته، فالزركلي: الأعلام، ج ٦، ص: ١١١ يقول إنه توفي بعد سنة ٣٦٧هـ. وعمر رضا كحاله: معجم المؤلفين، ج ١١، ص: ٥ يقول إن وفاته كانت سنة ٦٣٧ هـ. أما حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات دار الفكر بيروت، لبنان، (طبعة مصورة)، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ٦ مجلدات، المجلد الثاني، ص: ١٦٦٤، فيقول إنها كانت سنة ٣٥٠. وهذا خطأ ووهم من حاجي خليفة، فابن حوقل صرح في أخبار زيارته لصقلية - حسبما سنعرف - أنه زارها في سنة ٣٦٢هـ. انظر ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، ص: ١٢٢.

(٤) اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم: منشورات دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص: ٢١٦ وما بعدها - عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، منشورات دار الفكر، دمشق، ط ٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص: ٢١٠ - ٢١١ - أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، منشورات دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، دون سنة للطبع، ص: ١١٧.

كتاب صورة الأرض وقصة تأليفه وترتيبه :

ضمّن ابن حوقل مشاهداته وانطباعاته ومذكراته التي نجمت عن رحلاته، كتابه المعروف بصورة الأرض. وكتاب صورة الأرض كتاب جغرافي في المقام الأول^(٥). ولقد كان هذا هو الغرض من تأليفه، وهو بالتحديد يدخل ضمن دائرة كتب «المسالك والممالك» التي سبقه إليها بعض الجغرافيين المسلمين من أمثال البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ)، والأصطخري (أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الملقب بالأصطخري ت ٣٤٠هـ)، ثم تابعت كتب الجغرافية الإقليمية الإسلامية ظهورها بعد ابن حوقل، ولعل من أشهر روادها: المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري المتوفى ٣٩٠هـ) صاحب كتاب: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ثم تابعت المدرسة الجغرافية الإقليمية بعد ذلك سيرها طوال عصور الإزدهار العلمي للعالم الإسلامي^(٦).

ولقد أضاف ابن حوقل إلى كتابه هذا أخبار رحلاته التي قام بها على امتداد تلك السنوات الطويلة. ولذا فلن نبعد كثيراً إذا ما قلنا إن ابن حوقل يعتبر في عداد الجغرافيين الرحالة، وأن كتابه بالتالي يدخل ضمن كتب جغرافية الرحلات. وكتاب صورة الأرض، حمل في الواقع عنواناً آخر، هو كتاب المسالك والممالك، غير أنه في الحقيقة يأتي في الشهرة والشيوخ تالياً للعنوان الأول، وهو صورة الأرض^(٧).

(٥) انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٦٦٢ - ١٦٦٤، حيث الإشارة إلى كتاب ابن حوقل واعتباره ضمن مصنفات علم مسالك البلدان.

(٦) سيأتي الحديث عن سمات هذه المدرسة لاحقاً إن شاء الله.

(٧) يبدو أن هذا القول يخص عصرنا الراهن. أما ابن حوقل نفسه: صورة الأرض، ص: ٥، ٦، فإنه يصرّح بالعنوان الأول، وهو المسالك والممالك، فقال: هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والممالك... الخ ما جاء في المقدمة. وكذلك فعل حاجي خليفة: المصدر السابق والجزء، ص: ١٦٦٤، فلم يعرفه إلا بالمسالك والممالك.

ومما أصبح محل إجماع بين الباحثين المحدثين أن ابن حوقل، كما صرَّح في كتابه، كان متأثراً بالفعل بالأصطخري. ولهذا جاء كتابه على غرار كتاب الأصطخري: شكلاً، واسماً، وتخطيطاً، وقدراً من المحتوى، مع ما انفرد به ابن حوقل بالطبع من مادة علمية، جاءت عن طريق رحلاته المتعددة، كما صرَّح هو بذلك في مقدمة الكتاب. ويبدو أن ابن حوقل قد بلغ به التأثير بالأصطخري حداً جعله يطرح من كتابه كل مانقله عن الجغرافيين قبله، ورغب أن يكون اعتماده على الأصطخري وحده، وأن ينهج نهجه^(٨).

ولكن هل يمكن القول إن اتهامات ابن حوقل الجغرافية، ثم ولعه بالرحلات، كانا السبب في تأليف كتابه: صورة الأرض أو المسالك والممالك؟ نعم إنَّ هذا هو ما أفصح عنه ابن حوقل في مقدمة كتابه المذكور^(٩)، عندما قال: «وكان مما حَضَّنِي على تأليفه، وحَثَّنِي على تصنيفه، وجذَّبَنِي إلى رسمه، أَنِي لم أزل في حالة الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك، متطلعاً إلى كيفية البين، بين الممالك في السيرة والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم، والمعارف والعلوم والخصوص والعموم. وترعرعت، فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في المسالك كتاباً مقنعاً، وما رأيت فيها رسماً متبعاً، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب واستنطائي فيه وجوهاً من القول والخطاب». ويتابع شرح أسباب تحريره لكتابه بقوله: «وأعانني عليه تواصل السفر وإزعاجي عن وطني، مع ماسبق به القدر لاستيفاء الرزق والشهوة لبلوغ الوطر،

(٨) انظر ابن حوقل: المصدر السابق، المقدمة - اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص: ٢١٦ - ٢١٧ - عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص: ٢١١ - ٢١٢.

(٩) راجع عن هذه النصوص، ص: ١٠ - ١٣.

بجوار السلطان وكلب الزمان . . فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة» ، ويضيف أيضاً: « . . وكان أكثر مما حداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة ، أي كنت في حالة الحداثة شغفاً بأخبار البلدان ، والوقوف على حال الأمصار ، كثير الاستخدام لسافرة النواحي ، ووكلاء التجار ، وقراءة الكتب المؤلفة فيها» .

مفهوم الرحلة الجغرافية :

مر بنا أن ابن حوقل يعتبر في عداد الجغرافيين الرحالة ، وأن كتابه يدخل ضمن كتب جغرافية الرحلات . وفي الحق فإن هذا يستدعي منا وقفةً لتحديد طبيعة الرحلة الجغرافية أو مفهومها ، وهل هناك فرع من الجغرافية يمكن أن يطلق عليه جغرافية الرحلات؟ .

إن نقطة البدء حول هذه النقطة أو التساؤل ، تنطلق من الحديث عن ميلاد الجغرافيا التي اصطلح مؤرخو الفكر الجغرافي على نعتها أو تسميتها بالجغرافية الوصفية . فلقد أجمع دارسو الفكر الجغرافي الاسلامي على أن ثمت اتجاهين يميزان علم الجغرافيا عند المسلمين ويسيران جنباً إلى جنب في خطين متوازيين ، هما إتجاه معرفي علمي دقيق ، ويمثله كأوضح ما يكون التمثيل : الجغرافيا الفلكية أو الرياضية ، والتي أطلق عليها المسلمون : علم الأطوال والعروض ، وعلم تقويم البلدان ، واتجاه آخر معرفي أدبي ، ويتمثل في علم المسالك والممالك ، وعلم عجائب البلدان . وميدان اهتمامها هو جوانب الجغرافيا الطبيعية والبشرية ، التي تتناول وصف الظواهر الطبيعية من جبال ، وأنهار ، وطرق ، وبحار ، وبحيرات ، وتربات ، إلى غير ذلك ، بجانب مظاهر الحياة البشرية ، من تركيب سكاني ، ووصف لمعيش الناس وأحوالهم

الاجتماعية والاقتصادية والمهنية، وغير ذلك. (١٠).

وقد كانت الحاجة الادارية والمالية والتنظيمية للدولة الإسلامية - وهي هنا الدولة العباسية - لمعرفة الأقاليم التابعة لها: بيئةً وسكاناً، وموارداً، هي السبب في نشوء نمط المسالك والممالك، فلقد دعت الحاجة الإدارية والمالية والتنظيمية إلى وصف أقاليم الدولة، ومعرفة الطرق، ومراحلها، والمنازل بين الأقاليم بعضها بعضاً، وتحديد المسافات، والطرق التجارية والبحرية، والاهتمام بغلات الأرض ومعادنها، هذا فضلاً عن الرغبة في معرفة البلدان التي فتحت، وكيفية فتحها، وهي القضية التي فرضت نفسها على المسلمين مبكراً لمعرفة التعامل مع أهل الذمة، وتوضيح مقادير خراجاتهم، وجزيتهم. (١١).

ومع مرور الوقت أخذت تتبلور أسس مدرسة جغرافية، تسير وفق نمط المسالك والممالك، ولكنها أضافت إليها عدة مرتكزات ميزتها عن تلك المؤلفات الجغرافية السابقة، بحيث أصبح يطلق عليها الجغرافيا الإقليمية الإسلامية، وهذه

(١٠) عن نشأة هذين الاتجاهين في الجغرافيا الإسلامية، انظر اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ص: ٢٠ وما بعدها، ثم الفصول ٢، ٥، التي تتحدث عن الجغرافية الرياضية والإقليمية - نفيس أحمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ترجمة فتحي عثمان، منشورات دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، الفصول: ١، ٢، ٥ - صلاح الدين الشامي: الفكر الجغرافي - سيرة ومسيرة، منشورات دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠ م، الفصل الثالث، ص: ١٩٧ - ٢١٦.

(١١) عن نشأة الجغرافيا الإدارية، والتي يمثلها نمط المسالك والممالك في كثير من جوانبه، انظر كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١ - نقولاً، زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، منشورات دار الأهلية للنشر والتوزيع، دون سنة للطبع ولا مكان الطبع، ص: ١١ - ١٣ - وانظر كذلك كتابه: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦، ص: ٦٧ - محمد محمود محمددين: التراث الجغرافي الإسلامي، منشورات دار العلم للطباعة والنشر، الرياض، ص: ١٢١.

الأسس أو المراكز : التخصص في وصف مملكة أو دار الإسلام ، أو بلاد الإسلام ، وتقسيمها إلى أقاليم إدارية ، وليس مُناخية أو فلكية^(١٢) ، وقد تفاوتت تلك الأقاليم عند ممثلي هذه المدرسة ، في أعدادها ، من ١٤ إقليمًا ، إلى ٢٠ إقليمًا ، إلى ٢٢ إقليمًا^(١٣) .

والأمر الثاني الذي ابتدعته المدرسة الجغرافية الإقليمية ، الاهتمام بإدخال فن رسم الخرائط أو المصورات الجغرافية (الكارتوغرافيا) في كتبهم الجغرافية ، وهو الأمر الذي أعتبر تطوراً أو ارتقاءً في اتجاهات الفكر الجغرافي الإسلامي . وما هو جدير بالذكر أن هذه المصورات التي أطلق عليها : أطلس الإسلام ، تختلف عن خرائط المدارس الخوارزمية ، كما أكد على ذلك الباحثون الغربيون .^(١٤)

والأمر الثالث الذي ميز هذه المدرسة ، هو أنه أمام تنامي الحس الجغرافي عند أتباعها ، والشغف بأحوال دولة الإسلام الإدارية والمالية ، لم يكتفوا بجمع المادة الجغرافية فقط ، بل تطلعوا إلى الوقوف شخصياً على المعالم الجغرافية الطبيعية والبشرية . ولقد رأى هؤلاء أن معارفهم الجغرافية لا تكتمل إلا بالوقوف على تلك المعالم ، واخضاعها للملاحظة المباشرة ، أو المشاهدة والمعاينة . وهكذا ظهر الجغرافيون الرحالة ، الذين اختلفوا عن الجغرافيين الأوائل من أمثال ابن خرداذبة صاحب أول

(١٢) لفظة الإقليم الذي اصططلحت الجغرافيا الإقليمية الإسلامية على استخدامه ، لا يعني الإقليم بوصفه المناخي أو الرياضي ، أي : أحزمة عريضة ، تضم عدداً من درجات العرض Klimata ، مرتبة من الجنوب إلى الشمال ، بل كمناطق جغرافية واسعة ، أو ولايات regions ، ذات مظاهر طبيعية معينة أو مناطق إدارية .

انظر كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ص : ٢١٥ - محمد محمود محمدين : التراث الجغرافي الإسلامي ، ص : ١١٣ - ١٢٤ .

(١٣) كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ص : ٢١٢ وما بعدها .

(١٤) انظر كراتشكوفسكي : نفسه ، ص : ٢٢٤ - ٢٢٥ للتعرف على جوانب هذا الموضوع المهم من الفكر الجغرافي الإسلامي .

مؤلف يحمل اسم: المسالك والممالك، وقدامة بن جعفر صاحب كتاب: الخراج وصنعة الكتابة، وابن رسته صاحب كتاب الأعلام النفيسة وغيرهم. (١٥)

تبقى الإشارة إلى أن الرحلات الجغرافية، تختلف عن الرحلات ذات الطابع الأدبي المحض، والتي دعت إليها بواعث مختلفة: علمية وسياسية، وسياحية صرفة. ذلك أن الرحلات الجغرافية، قام بها جغرافيون خُلص، بهدف معاينة وتطبيق ما نقلوه أو جمعوه من مادة جغرافية من مؤلفات سابقة، أو لعلها تَبَدَّت لهم خلال تناقلاتهم.

أما الرحلات المحضة أو البحتة المنبثقة عن تلك البواعث السابقة، فهي التي يقدَّم فيها الرحالة في وصفه لرحلته، معلومات جغرافية، عَرَضاً، وليس قصداً، وهي بهذا المفهوم تشكل فرعاً من فروع الأدب^(١٦)، لا فرعاً من فروع الجغرافيا، رغم المادة الجغرافية التي وردت في أخبار رحلته. أي أننا يمكن أن نقول بأن الرحالة قد لا يكون جغرافياً، ومع ذلك يقدم مادة جغرافية توضع نتاجه في مادة الجغرافية الوصفية أو الأدبية، وعلى ذلك نستطيع أن نقرر بأنه ليس كل جغرافي رحالة بالضرورة ولكن كل رحالة هو جغرافي بالضرورة. على أن الجغرافي إذا قام برحلته الجغرافية، فإنه معنيّ بالطبع باستنفار حاسته الجغرافية فيما يسمعه، وفيما يراه، وفيما ينقله انطلاقاً من واجبه بوصفه جغرافياً، هذا من نحو، وتطبيقاً لما أخذ به نفسه من تحديد لمعالم رحلته، أو رحلاته الجغرافية في مقدمة، مؤلفه وثناياه من نحو آخر.

(١٥) انظر عبدالرحمن حميدة: المرجع السابق، ص: ٧٥ - نقولا زيادة: رواد من الشرق العربي في العصور الوسطى، ص: ٦٧ وما بعدها.

(١٦) عن نشأة الرحلة وبواعثها، بوصفها فرعاً من فروع الأدب، حتى لقد أصبح هناك لون من ألوان الأدب، عُرف بأدب الرحلة، انظر مثلاً: شوقي ضيف: الرحلات، منشورات دار المعارف، القاهرة، مصر دون سنة للطبع، ط ٣، ص: ٥ - ١٠، ٢٧ - ٤٧، ٤٨ - ٦٧. حيث قد فُصِّل ذلك الأمر تفصيلاً رائعاً.

مفهوم الجناح الغربي للدولة الإسلامية :

عندما اخترنا مفهوم أو تعبير الجناح الغربي للدولة الإسلامية عنواناً للبحث عن رحلات ابن حوقل الجغرافية له، كنا منساقين مع منهج ابن حوقل، الذي قسم مملكة الإسلام إلى ٢٢ إقليمًا، بما في ذلك الأندلس وصقلية. ولقد وجدنا ابن حوقل يعطي في مقدمة كتابه، ثم في حديثه عن بلاد المغرب، مفهوماً واسعاً للمغرب، يضم الجناح الغربي للدولة الإسلامية: بلاد المغرب العربي بأقسامه الثلاثة: المغرب الأدنى، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، علاوة على امتداده، أي المغرب الطبيعي نحو الجنوب إلى تخوم نهرى السنغال والنيجر (بلاد السودان الغربي) ثم الأندلس وأخيراً صقلية^(١٧) يقول ابن حوقل^(١٨): «وأما المغرب فبعضه ممتد على بحر المغرب في غربيه، ولهذا البحر جانبان شرقي وغربي، وهما جميعاً عامران». و «أما الغربي فمن مصر وبرقة إلى إفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة». وبالطبع فإنه يعني هنا بالجانب الغربي من بحر المغرب^(١٩):

(١٧) (بلاد السودان الغربي أو غربي إفريقية)، هو الأقليم الممتد جغرافياً من المحيط غرباً قرب الرأس الأخضر، إلى بحيرة تشاد شرقاً. وتقع هذه المساحة بين خطي عرض ٩°، ١٧° شمالاً تقريباً. وتشمل الأقاليم الواقعة شمالي الغابات الاستوائية، وجنوبي الصحراء الكبرى، أي منطقة السافانا، ويعرف هذا الإقليم أيضاً بالسودان الأوسط، والسودان الغربي. وهو جزء من بلاد السودان التي عرفها الكتاب العرب، ويعنون بها الحزام السوداني الممتد في قلب القارة الإفريقية من الشرق إلى الغرب، أي أن بلاد السودان تشمل في عُرفهم من الناحية الجغرافية إقليم غربي أفريقيا، ومعظم سودان وادي النيل. انظر إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص: ٤ - ٥، وانظر كذلك كتابه الآخر: إمبراطورية غانة الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص: ٧ - ٨.

(١٨) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٤.

(١٩) أطلق الجغرافيون المسلمون على البحر المتوسط، عدة أسماء، بحسب السواحل التي يمر عليها: الشامية، والمغربية، والرومية، بل والمصرية (الإسكندرية).

انظر محمد محمود محمدين: المرجع السابق. ص: ٤٩٠، في مادته التي عنوانها بأسماء البحار في كتب التراث.

وفيما يتصل ببلاد السودان الغربي، الذي يعتبر امتداداً طبيعياً لبلاد المغرب، فيقول: «وقد بدأت بذكر حدّه - أي بلاد المغرب - المحيط به من قبوله، وحدّه من مصر الاسكندرية على النيل وأرض الصعيد حتى يمضي على ظهر الواحات إلى بريّة تنتهي إلى أرض النوبة آخذاً إلى البحر المحيط، ويمتد إلى حقيقة الغرب بنواحي أرض غانة وأرض أودغست، ثم يستمر عاطفاً إلى الشمال، ماراً على بلاد برغواطة وماسة إلى فوهة بحر الروم، الذي يأخذ من البحر المحيط بين أرض طنجة وأرض الأندلس، وراجعاً حدّه من أرض طنجة على البحر إلى نواحي تنس، وإلى تونس والمهدية من أرض إفريقية مقبلاً على أرض طرابلس وبرقة إلى الاسكندرية». (٢٠).

أما الأندلس، فيقول عنها: «وأما الأندلس، فهي جزيرة تتصل بالبر من جهة جليقية وإفرنجة، وهي في جملة المغرب» (٢١). والجملة الأخيرة مفيدة حقاً في توضيح رأي ابن حوقل الذي يجعل الأندلس في عداد المغرب.

وأما صقلية، ففي الخارطة التي رسمها لبلاد المغرب، نراه يقول في أثناء حديثه عن القسم الثاني من صورة الأرض، وما فيه من الأسماء والنصوص: (. . . وفي البحر، رُسم من الجزائر، مالطة، قوسره، صقلية، سردانية، قرشقة. . . الخ) (٢٢). ومن الطبيعي أن نؤكد على أن ابن حوقل يقصد من تلك الجزر، مأهو تابع لمملكة الاسلام، ولذلك نراه بعد فراغه من الحديث عن الأندلس وأحوالها، ويبدأ الحديث عن صقلية، نراه يقول: (ويلحق بها - أي الأندلس - في حُسن الحال مما هو بيد أهل الإسلام: صقلية. . .) الخ. (٢٣).

(٢٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٤ - ٦٥.

(٢١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٥.

(٢٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٧.

(٢٣) نفسه، ص: ١٢٣.

وعلى كل هذا فإن ابن حوقل يوافق غيره من الجغرافيين المسلمين، الذين أعطوا تفسيراً أو مدلولاً واسعاً للمغرب، يشمل الجناح الغربي كله. فالأصطخري مثلاً، يُعرّف المغرب بأنه كل مايلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، ويقسمه إلى قسمين: قسم مغربي إفريقي بمدنه وقراه، أي أقسامه التاريخية الثلاثة التي ذكرناها سابقاً، وهو قسم شرقي، وقسم غربي، وهو الأندلس^(٢٤). بل لقد زاد مدلول المغرب إتساعاً، فشمّل بالإضافة إلى الأندلس، مصر، باعتبار أن معنى لفظ المغرب لغوياً، إنما هو كل مايقابل المشرق من بلاد وأمصار. ومعنى هذا، أنه يشمل صقلية أيضاً، وكل ما استطاع المسلمون وضع أيديهم عليه من أوروبا الغربية^(٢٥). بل أيضاً وجدنا من يعتبر بلاد الشام داخلة ضمن مفهوم المغرب^(٢٦).

ولاشك أن هذا المفهوم الواسع الذي يدخل أفطاراً لا تربط بينها وحدة جنسية وطبيعية لا يعدو أن يكون تنظيمياً سياسياً وإدارياً، اقتضته مصلحة الدولة الإسلامية - وهي هنا الخلافة العباسية - التي اتخذت من دجلة والعاصمة بغداد خطاً طويلاً تنفرع منه الخطوط الطولية، أي أنه غدا خط التقسيم، الذي يقسم الدولة، بناءً على قرارات من الخلفاء العباسيين، ولاسيما الرشيد، الذي قسم الدولة بين ولديه الأمين والمأمون، فأعطى الأول مغرب الدولة، وأعطى الثاني مشرق الدولة^(٢٧).

(٢٤) الأصطخري (ت ٣٤٦هـ): المسالك والممالك: تحقيق محمد جابر عبدالعال، منشورات دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٣٣.
(٢٥) انظر المقدسي (ت حوالي ٣٩٠هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م، ص ٢١٦.

(٢٦) انظر التحقيق الواسع حول هذا الموضوع الذي كتبه سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩م، جزءان، الجزء الأول. ص: ٦١ - ٦٢ مع الحواشي.

(٢٧) سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ج ١، ص: ٦١ مع الحواشي.

تبقى أخيراً الإشارة إلى تعبير الجناح الغربي الذي استخدمناه، فالحقيقة أنه تعبير حديث، أو استخدام حديث، مثله مثل تعبير النصف الغربي للدول الإسلامية.^(٢٨) فكلاهما تعبير حديث لمفهوم قديم لجزء من العالم الإسلامي، يشكل الرثة الثانية له.

(٢٨) انظر سعد زغلول عبد الحميد: نفس المرجع السابق أعلاه، ص: ٦١ حيث يتبنى هذه التسمية.

مادة الجناح الغربي للدولة الإسلامية في كتاب ابن حوقل وتنظيمها

يمكن القول في البداية إن مادة الجناح الغربي للدولة الإسلامية في صورة كتاب الأرض قد استغرقت حيزاً واسعاً من الكتاب، أي حوالي: ٦١^(٢٩) صفحة، شغل المغرب العربي الأفريقي بأقسامه التاريخية الثلاثة: المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، من هذه الصفحات: ٣٩ صفحة، أما الأندلس، فقد شغلت ٨ صفحات، متوافقاً مع الاعتبارات التالية:

١ - أنه يسير وفق الإطار أو المنهج الذي اختطه لنفسه في الحديث عن العالم الإسلامي أو بلاد الإسلام: إقليمياً إقليماً وصقلاً صقلاً دون أن يغفل التأكيد على أن هذا التقسيم، إنما هو تبويبي تنظيمي فحسب، لأن الأقاليم الاثني عشر - التي انقسمت إليها ديار الإسلام وفق مخططه - ، إنما تندرج ضمن الأقطار أو الأمصار الرئيسية التالية: ديار العرب، المغرب، مصر، الشام، الجزيرة الفراتية أو جزيرة أقور^(٣٠)، العراق، فارس، السند، أرمينيا وأذربيجان والجلال، خراسان، بلاد ما وراء النهر^(٣١).

(٢٩) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٤ - ١٢٥.

(٣٠) الجزيرة أو بلاد الجزيرة، هي المعروفة بالجزيرة الفراتية، أي الجزيرة التي بين دجلة والفرات، وتسمى جزيرة أقور كذلك. وتشمل ديار مضر وديار بكر. سميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات. انظر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٥ أجزاء، ج ٢، ص: ١٣٤ - ابن حوقل: نفسه، ص: ١٨٩ وما بعدها.

(٣١) انظر ابن حوقل نفسه، المقدمة، ص: ١٥، ١٦.

٢ - إن ابن حوقل منا انفك يؤكد في كل حين ومناسبة أن مفهومه للجناح الغربي للدولة الإسلامية، يدخل ضمن تعريفه لدلول لفظ المغرب الجغرافي، وهو كل ما يلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، بما في ذلك الأندلس والجزر الموجودة بالبحر المتوسط، وعلى رأسها صقلية، وما يتبع بلاد الإسلام من غربي إفريقية^(٣٢).

٣ - إن ابن حوقل، عضد تعريفه أو تحديده لدلول لفظ المغرب جغرافياً بالتحديد السالف الذكر، بالتخطيط الكارتوغرافي الذي دأب عليه، وهو يرسم أو يصور: خرائط أو خارطات، أو خرط - بحسب اختلاف أسماؤها^(٣٣) -، كتابه، والبالغة: ٢٢ خارطة لـ: ٢٢ إقليم^(٣٤). أقول عضد مفهومه أو تحديده ذلك بالخارطة التي رسمها أو صورها، وأطلق عليها: صورة المغرب، والتي تشمل الحديث عن: بلاد المغرب العربي الأفريقي، جزءاً من غربي إفريقية التابع لبلاد الإسلام، الأندلس، صقلية^(٣٥)، وهو مفهوم الجناح الغربي للدولة الإسلامية الذي جاء البحث، ليوضح رحلات ابن حوقل الجغرافية له.

٤ - يلاحظ من خلال تتبع المادة الجغرافية الواسعة للجناح الغربي للدولة الإسلامية، تقيّد ابن حوقل بالمسارين اللذين فرضتهما أو أفزتهما الرحلة الجغرافية، أو بتعبير

(٣٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٦٤، ٦٩.

(٣٣) مصطلحات الخارطة والخريطة والخرط - وهي جمع لخريطة - مصطلحات حديثة نسبياً. والجغرافيون المسلمون ومنهم ابن حوقل كانوا يعبرون عن الخريطة أو الخارطة بـ: الصورة، مثل قول ابن حوقل عن خارطة العالم: هذه صورة الأرض. وهناك من العرب من استخدم عدة تعبيرات للدلالة عن الخريطة مثل: كلمة جغرافيا التي تعني رسم خارطة للأرض في بداية استعمالها أو جغرافية. أما الخريطة في اللغة فهي الكيس.

انظر محمد محمود محمددين: المرجع السابق، ص: ٢٢٠٧ - يوسف التوني: معجم المصطلحات الجغرافية، منشورات دار الفكر العربي، دمشق ١٩٧٧م، ص: ١٩٩.

(٣٤) إغناطيوس كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢، - ٢٢٧.

(٣٥) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٦ - ٦٧.

آخر مميزات الرحلة الجغرافية، حسبنا وضحنا من قبل، وهما: المعالجة الجغرافية المقننة، ثم الانطباعات والمواقف، التي تأتت عن طريق الملاحظة المباشرة، والمشاهدة، أو المعاينة والمعايشة، والوقوف على تلك الأمور شخصيا. وهذان الاتجاهان كما هو معروف سارا جنباً إلى جنب لدى كل ممثلي مدرسة الرحلات الجغرافية^(٣٦).

وبوسعنا القول أنه فيما يتصل بالمسار الأول أو الشق الأول من الرحلة الجغرافية، وهو المعالجة الجغرافية، يمكن التأكد على تقيّد ابن حوقل بهذا المسار وهو يتحدث عن بلاد المغرب، بما في ذلك ما يتبع الإسلام من غربي إفريقية، الأندلس، صقلية، بطرح جغرافي متميز، وفق المسلّماتين التاليتين:

١ - التزام علمي جغرافي محض، بما أخذ به نفسه في المقدمة من التطرق لجوانب معرفية جغرافية محددة، أي تلك الجوانب التي قال عنها: (. . هذا كتاب المسالك والممالك، والمفاوز والممالك، وذكر الأقاليم والبلدان، على مر الدهور والأزمان . . وطبائع أهلها، وخواص البلاد في نفسها، وذكر جباياتها، وخراجاتها، ومستغلاتها، وذكر الأنهار الكبار، واتصالها بشطوط البحار، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة . . مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار، والنوادر، والآثار . .)^(٣٧).

وينتقل ابن حوقل من التعميم إلى شيء من التخصيص بصدد تلك الجوانب فيقول في المقدمة كذلك، عن المضامين التي احتواها كتابه، وهي: (. . . صفة أشكال الأرض، ومقدارها في الطول والعرض، وأقاليم البلدان، ومحل الغامر منها

(٣٦) انظر قبل، ص: ٥.

(٣٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ٥.

والعمران، من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها، وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها... (٣٨).

ويعود إلى تأكيد منطلقاته في وضع مادة الكتاب، بالقول (...). وأعربت عن مكان كل إقليم ممّا ذكرته، واتصال بعضه ببعض، ومقدار كل ناحية في سعتها، وصورتها من مقدار الطول والعرض، والاستدارة والتربيع والتثليث، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة والعمل، وموقع كل مدينة من مدينة تجاورها، وموضعها من شأها وجنوبها، وكونها بالمرتبة من شرقها وغربها، ليكتفي الناظر ببيان موقع كل إقليم، وموضعه ومكانه، وما توخيته من ترتيبه وأشكاله، وقصصته من أحواله وأخباره (٣٩).

على أننا نلاحظ أن هذه المنطلقات لم تكن شاملة في حق كل أقطار الجناح الغربي للدولة الإسلامية، فهي إذا كانت واضحة بقوة في المغرب وما يليه من بلاد غربي إفريقية، فإنها فيما يتصل بالأندلس وصقلية تبدو خافتة. هذا شيء والشيء الآخر أن ابن حوقل لم يستطع الإلتزام الحرفي بكل ما أخذ به نفسه فيما يتعلق بمعطيات تلك المنطلقات الجغرافية التي قصد إليها من تأليفه كتابه. فجزيرة صقلية بمدنها العديدة، والجزيرة الأخرى قوصرة لم يحظيا منه بوصف تفصيلي، وركز كل وصفه على مدينتي: بلرمو، والحالصة، وحياتها الاجتماعية. أما بقية مدن جزيرة صقلية والتي يقول ياقوت (٤٠) إن عددها يصل إلى ثلاثٍ وعشرين مدينة، فلم يشر إليها البتّة، مع أن بعض تلك المدن كان لها أهميتها إبان وجود المسلمين بالجزيرة مثل

(٣٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٠.

(٣٩) عبدالرحمن حميدة: المرجع السابق، ص: ٢١٢ - ٢١٣، حيث خلت مقدمة الكتاب المطبوع الذي عوّلنا عليه من هذه الأسطر.

(٤٠) معجم البلدان، ج ٣، ص: ٤١٦ - ٤١٧.

مدن: مازر، ومسينا أو مسينة، وقطانيا، أو مدينة الفيل، وطبرمين، وطرابنش وغير ذلك^(٤١).

بل لعل من الغريب أن يغفل ابن حوقل الإشارة إلى بركان أتنا المشهور، الذي يشكل ظاهرة جغرافية واضحة لكل زائر لصقلية، هذا البركان الذي عرفه الجغرافيون العرب باسم: جبل النار، والذي يصل ارتفاعه إلى أكثر من ثلاثة آلاف متر، وقد ذكره غير واحد من الجغرافيين العرب والمسلمين، مثل المسعودي والمقدسي، وياقوت. هذا البركان الذي كان يلهب الخيالات بتكوينه الجيولوجي الذي تكسو الثلوج قمته وقت هموده^(٤٢). كما أن ابن حوقل قد أغفل ولا ندري لم ذلك، الحديث عن المسافات والطرق البرية بين مدن جزيرة صقلية، وهو الذي وقف وعين وشاهد وقدم لنا انطباعات طريفة في التحامل على صقلية؟^(٤٣).

٢ - المسلمة الثانية التي تقيّد بها ابن حوقل، وهو يضمن المادة التي جمعها عن الجناح الغربي للدولة الإسلامية: نقلاً ومشاهدةً ومعينةً، هي: الالتزام المنهجي بما أخذ به نفسه في المقدمة كذلك من العمل على التثبت من معلوماته، أو بتعبير آخر التزام منهجي بالقيود التوثيقية التي اشترطها، وهو يودع المادة التي جمعها كتابه: صورة الأرض. هذه القيود التي يقول عنها: (. . .) وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً، وأخاله بما أسأله عنه خبيراً، فأجده عالماً عند إعادة الخبر الذي أعتقد

(٤١) عن هذه المدن وعن جغرافية صقلية الإسلامية انظر سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ج ٢، ص: ١٩٧ - ٢٠١.

(٤٢) ياقوت: نفس المصدر السابق أعلاه والجزء، ص: ٤١٨ - سعد زغلول عبد الحميد: نفس المرجع السابق والجزء أعلاه، ص: ٢٠٦.

(٤٣) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٣ - ١٢٥، حيث تنعدم الإشارة إلى الطرق والمسافات - إحسان عباس: العرب في صقلية - دراسة في التاريخ والأدب - منشورات دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٥، ص: ٢٣ - ٢٤.

فيه صدقه، وقد حفظت نسقه، وتأملت طرقه ووصفه، وأكثر ذلك باطلاً، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاها جاهلاً، ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه والذكر، ليسمع الذي استوصفته، وأطلع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية، وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية، فتتنافر الأقوال، وتتنافى الحكايات، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسّه في نفسي بالقوة على الأسفار، وركوب الأخطار، ومحبة تصوير المدن، وكيفية مواقع الأمصار، وتجاور الأقاليم والأصقاع^(٤٤).

والحق أن معالم هذا المنهج التوثيقي لا تكاد تبدو جلية واضحة، عند حديث ابن حوقل عن بلاد المغرب : مدنها، وطرقها، وغلاتها، وجباياتها المالية، إلّا في مثال واحد فحسب، يقول عن جباية بلاد المغرب : (وسمعت أبا الحسن بن أبي علي الداعي . . . وهو صاحب بيت مال أهل المغرب يقول في سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة، دخل المغرب من جميع أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه فيكون من سبع مائة ألف دينار إلى ثمان مائة ألف دينار، و سمعت هذه الحكاية بعينها واللفظ بصيغته من زيادة الله أبي نصر بن عبدالله بن القديم في سنة ستين يذكرها عن نفسه، وكان صاحب الخراج بإفريقية، وجميع المغرب، وكأنهما تفاوضا القول، وعلمنا وجوه ذلك، وما يدخل فيه من ارتفاق أصحاب الأعمال، واستثثارهم بما يزيد على القوانين في أيديهم وما أبعد أن يكون ذلك لما بيّنته في ضمان^(٤٥) برقة وحالها^(٤٦)).

(٤٤) عبدالرحمن حميدة: المرجع السابق، ص: ٢١٢ - ٢١٣، حيث خلت مقدمة كتاب صورة الأرض المطبوع الذي عوّلنا عليه من هذه الأسطر.

(٤٥) التقبل أو الضمان : اصطلاح مالي إسلامي، ظهر في عصر الدولة الأموية ثم تطور بعد ذلك في عصر الدولة العباسية، وهو نظام يعني : (أن يجعل شخص قبيلاً : أي كفيلاً (ضامناً) بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه، مقابل مقدار معلوم يدفعه - وهو ما عرف فيما بعد باسم نظام الالتزام - فيستفيد السلطان تعجيل المال، ويستفيد المتقبل الفرق بين ما دفعه وما حصله). وقد أنكره علماء الشريعة، ولم يقرّوه.

أما حديثه عن الأندلس وصقلية، ولا سيما فيما يتصل بانطباعاته التي كونها عنها - أي صقلية -، وهي الإتهامات التي تحامل فيها على أهل صقلية كثيراً. فإن الذي يهمننا منها هو مدى انسجام ابن حوقل مع نفسه فيما رسمه لها من قيودات توثيقية. ففي حديثه عن جبايات الأندلس كذلك في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر (ت: ٣٥٠هـ)، يقول: (وسمعت غير محصّل (أي جابي الضرائب والموارد الرسمية للدولة)، ثقة، ممن يستبطن جبايات البلد، وحاصل (أي محصولات) عبدالرحمن بن محمد، أن لديه ثمناً - انجّه له جمعه من الأموال إلى سنة أربعين وثلاثمائة مالم يتقصص عن عشرين ألف دينار، إلا اليسير القليل... الخ) (٤٧).

وفي معرض نقده لعلماء وأدباء صقلية، يروي عن القاضي عثمان بن الخراز حكاية تدل على معاناته من أهل صقلية، فيبدأ حديثه بما يؤكد نهجه التوثيقي، فيقول: (وحدثني غير إنسان منهم أن عثمان بن الخراز، ولي قضاءهم وكان ربما قد ركن إلى قوم منهم في العدالة والشهادة... إلى نهاية الحكاية التي يدل سياقها على خيبة ظن القاضي، فيما كان يظنه: رأساً في أهل صقلية) (٤٨).

محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، منشورات دار الأنصار، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٧م، ص: ٢٦١ مع الحواشي، ٥٠٧ مع الحواشي كذلك.

(٤٦) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٤.

(٤٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٠٧.

(٤٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٨.

الاتجاهات الجغرافية التي عالجها ابن حوقل في كتاباته ورحلاته لجناح الدولة الإسلامية الغربي

يمكننا التأكيد من خلال دراسة نقدية فاحصة لرحلات ابن حوقل الجغرافية للجناح الغربي للدولة الإسلامية، على أن ابن حوقل شأنه شأن غيره من الجغرافيين والرحالة كذلك -، قد عالج في كتابه جميع أو معظم ميادين المعرفة الجغرافية التي تعنى بها الجغرافيا الحديثة - ولكن وفق منهج الفكر الجغرافي القديم أو التراثي السائد وقتها بالطبع^(٤٩) - . وهذه الاتجاهات الجغرافية، هي :

- الجغرافية الاقتصادية^(٥٠) بكل ميادينها، أي الجغرافيا الزراعية، والجغرافية الصناعية، وجغرافية التجارة، وجغرافية الطرق والنقل التي تربط بلاد العالم الإسلامي .

(٤٩) عن الفكر الجغرافي التراثي، الذي عُنى به الجغرافيون المسلمون، سواء ما نقلوه عن الفكر الجغرافي اليوناني أو الهندي، أو ما أضافوه هم، ثم الانتقال إلى أسس أو مرتكزات الفكر الجغرافي الحديث، انظر مثلاً صلاح الدين الشامي : الفكر الجغرافي - سيرة ومسيرة -، الفصل الثالث، ص : ١٧٥ - ٢٦٨، الفصل الرابع، ٢٦٩ - ٣٧٢ مع الخاتمة .

(٥٠) الجغرافيا الاقتصادية : فرع من فروع الجغرافيا البشرية، يهتم بدراسة وانتاج وتوزيع وتبادل واستهلاك الثروات، وكذلك دراسة العوامل الاقتصادية التي تؤثر على الاختلافات السكانية لسطح الأرض .

يوسف التوني : معجم المصطلحات الجغرافية، ص : ١٥٤ .

— الجغرافيا البشرية، أي الجغرافية التي تعنى بدراسة الشعوب مما يدخل في مجال الجغرافيا الاجتماعية^(٥١)، بالإضافة إلى ما يتعلق بجغرافية المدن.

— الجغرافية الحيوية، وهي التي تعنى بجغرافية النبات، والحيوان بصفة عامة^(٥٢).

— الجغرافية الطبيعية، وهي وصف الظواهر التضاريسية والمناخية^(٥٣).

— جغرافية الأجناس البشرية أو جغرافية السلالات البشرية^(٥٤).

وعلاوة على هذه الأنماط الجغرافية المتعددة، كان ابن حوقل يركز في صفحات

(٥١) تعرف الجغرافيا البشرية، بأنها: الدراسة الجغرافية (المكملة للجغرافية الطبيعية) لتلك الأشياء أو الظواهر من سطح الأرض التي ترتبط مباشرة بالإنسان أو تعزى إليه، أو إلى نشاطه، وهي أحد أقسام الجغرافيا الرئيسية، وتضم عدة فروع منها: الجغرافيا الاقتصادية، والجغرافية السياسية، والجغرافية الاجتماعية، والجغرافية الطبية، وما إليها. يوسف التوني: المرجع السابق، ص: ١٥٤.

(٥٢) الجغرافية الحيوية: (١) الدراسة الجغرافية للطبيعة الحية. (٢) جغرافية الحياة العضوية. (٥٣) الجغرافية الطبيعية: (١) الدراسة الجغرافية لظواهر سطح الأرض التي يطلق عليها اسم «طبيعية».

(٢) بالمعنى الضيق، وهي: الدراسة الجغرافية للظواهر غير الحية على (سطح الأرض) ومن ثم فلا تشمل (الجغرافية الحيوية)، ولكنها تتضمن دراسة الصخور، والتربة، والتضاريس، والجيومورفولوجيا (علم أشكال سطح الأرض). والبحار، والمحيطات، والغلاف الجوي، وأحياناً العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

يوسف التوني: نفسه، ص: ١٥٦، ١٦٩.

(٥٤) جغرافيا الأجناس البشرية، أو جغرافيا السلالات البشرية، وليس لها تعريف حديث، ولكنها تشمل دراسة تطور الإنسان، وتوزيع سلالاته، والتركيب العنصري لمختلف أقاليم سطح الأرض. فالعلم موزع الآن بين الجغرافيا التاريخية والأنثروبولوجيا الطبيعية (اثنولوجيا).

يوسف التوني: نفسه، ص: ١٦٦، ثم انظر عن مرادفة علم الـ: اثنولوجيا، لعلم الانثروبولوجيا، ص: ١٩.

عديدة على الجغرافية الإدارية كمفهوم إسلامي أفرزته حاجة الدولة الإسلامية إلى معرفة العامر والغامر من أرض الإسلام وخراجاتها. ومن المعروف أن هذا الأمر من أهم دواعي أو بواعث الرحلات الجغرافية، التي أفرزت هذا العلم الجغرافي المهم في تاريخ الدولة الإسلامية، بجانب البواعث التجارية والعلمية، والدينية، والسياحية، حسبما مر بنا سابقاً.

وبجانب الأنماط الجغرافية السابقة، نجد ابن حوقل، يضمن كتابه المجهود العلمي التصويري أو الكارتوغرافي، وذلك برسمه صورة الجناح الغربي للدولة الإسلامية - مثلما فعل ببقية الأقاليم الإسلامية الجغرافية الأخرى -، والذي أطلق عليه: صورة الأرض، وقسمه إلى ثلاثة أقسام رئيسية^(٥٥).

بقي أن نشير أخيراً إلى عدد من الحقائق في هذا الصدد، هي:

١ - أن ترتيبنا للأنماط أو الأنواع الجغرافية التي عاجلها ابن حوقل في كتابه، والتي تُمثِّل مع الجغرافيا الحديثة في أغراضها - ولكن بمحتوى ومنهج مختلف -، بالصورة التي رتبناها، كان مقصوداً لذاته، فاهتمامات ابن حوقل أو اتجاهاته الجغرافية التي لاحظناها من خلال تتبعنا لمادة الجناح الغربي للدولة الإسلامية عنده، تؤكد ما ذهبنا إليه، فالجغرافيا الاقتصادية - بكل أنماطها - تأتي في المقام الأول، ثم يليها الجغرافية البشرية، فالجغرافية الحيوية، فالجغرافية الطبيعية، وأخيراً الجغرافية السلالية.

(٥٥) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٤، ٦٦-٦٨. ولا يفهم من هذا أقسام بلاد المغرب السياسية والإدارية: المغرب الأدنى، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، ولكن تقسيمه هو لسواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي - حيث يطل الجناح الغربي للدولة الإسلامية عليهما، سواء السواحل الإسلامية، أو السواحل البيزنطية، أو الجنوب الايطالي، أو الساحل الأندلسي من المحيط والمتوسط، مع ما وراء الصحراء الكبرى من بلاد السودان الغربي.

٢ - إن معالجته لتلك القضايا، وطريقة عرضها قد لامست العموميات فقط، دون أن تهتدي إلى التأثير والتأثر المتبادلين بين الإنسان وبيئته، وبين العلاقة الجيومورفولوجية بين أشكال سطح الأرض. وهو أمر طبيعي في معظم كتب الجغرافيا الإقليمية عند العرب.

٣ - إن معالجة ابن حوقل لتلك القضايا، وطريقة عرضها لم تكن واحدة في حديثه عن أقطار الجناح الغربي للدولة الإسلامية. فصقلية مثلاً، خلا حديثه عنها من الجغرافية الحيوية البتة^(٥٦). ويقال نفس الشيء عن جغرافية السلالات. أما الجغرافيا الاقتصادية، فقد كانت قليلة نزرة، ويمكن أن تصنف مادة صقلية في كتابه بأنها مادة جغرافية بشرية في معظمها.

أما الأندلس، وإن تمثلت فيها الجغرافيا الاقتصادية، والبشرية، والحيوية، والطبيعية، إلا أن ذلك لم يكن بدرجة واحدة، هذا شيء، والشيء الآخر، اختفت منها كذلك الجغرافيا السلالية.

ويظل المغرب وحده، الذي تمثلت فيه كل تلك الأنواع، مع فقر شديد في الحديث عن الجغرافية البشرية.

(٥٦) اللهم إلا ما قاله في نهاية حديثه - وهو أمر قابل للمناقشة - أن تربتها وقمحها، وحبوبها فاسدة، ولا يحول الحول عليها عندهم إلا وقد فسدت، وربما ساست في الأنادر قبل دخول المطامير والأهراء.

انظر، ص: ١٢٤.

والأنادر: الأحياء، أو أحياناً قليلة.

والمطامير: المطمورة: حفرة تحت الأرض قد هيأت، تحباً فيها الحبوب.

ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص: ٥٠٢، ج٥، ص: ٢٠٠.

٤ - أن حديثه عن بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي، والأندلس، وصقلية، كان متفاوتا فيما يتصل بتلك الأنماط أو الأنواع في حجمه: اتساعاً وضيقاً. غير أن الملاحظ أن مادة الجغرافيا الاقتصادية، هي حجر الزاوية فيها كلها.

٥ - تكاد تنعدم الإرشادات الدالة صراحة على رحلاته في بلاد المغرب، وأما إشارات رحلاته في بلاد السودان الغربي، فقد كانت أوضح بعض الشيء، وكذا الحال بخصوص الأندلس. فقد تعددت الإشارات الصريحة الدالة على رحلته إليها، وذلك في المادة التي احتواها كتابه عنها^(٥٧).

(٥٧) سنشير الى ذلك لاحقاً إن شاء الله.

نماذج من الجغرافيا الطبيعية في كتابات ابن حوقل عن الجناح الغربي للدولة الإسلامية

هل جذبت ابن حوقل في رحلاته الجغرافية إهتمامات أو بعض إهتمامات الجغرافيا الطبيعية؟ الجواب بالتأكيد: نعم، فلقد عالج ابن حوقل بعض تلك الجوانب بما فيها من ظاهرات، مثل الجبال والصخور، والتربة، والبحار، والسهول، والصحارى. بيد أنه يجب توخي الحذر هنا. فتناوله لتلك الظاهرات كان تناولا سطحياً، بل يكاد يكون عمومياً كما سبق أن أوضحنا. وهنا سنكتفي بذكر نماذج محددة، هي الوحيدة تقريباً التي تدل على اشتغاله بهذه الجوانب، هذا من جهة، ولكي ندلل ونوضح صدق ما ذهبنا إليه من وصفها - أي تلك الإهتمامات - بالسطحية والهامشية من جهة أخرى.

في البدء نلاحظ أن ابن حوقل، وهو الذي اكتفى بذلك الكم الضئيل من الجغرافيا الطبيعية، كان يزيد على ذلك، فلا يسميها لنا، بل - وهذا هو المستغرب - نراه لا يعنى بذكر بعضها، وهي التي تشكل أهمية كبيرة في تاريخ بلاد المغرب وطبعه بطابعها الجغرافي، والذي أسهم في تشكيل حياة بلاد المغرب الإجتماعية والثقافية والسياسية كذلك، حسبما سيتضح لنا بعد قليل.

ولكي نؤكد على التناول السطحي لبعض تلك الظاهرات الطبيعية، نقف عند إشارته إلى الجبل الذي يحيط بمدينة برقة الليبية، الذي يعد ظاهرة جغرافية لها أهميتها في تاريخ مدينة برقة، أعني بذلك الجبل الأخضر. يقول ابن حوقل عنه: (ويحيطها

جبل من سائر جهاتها^(٥٨). وهكذا نراه لم يعن حتى باسم الجبل، ناهيك عن أهميته أو جيمورفولوجيته^(٥٩). وعند حديثه عن مدينة طرابلس، نراه يكتفي بإشارة خاطفة إلى الجبل الذي يحيط بها، وهو جبل نفوسة ولا سيما المدينة، كالهلال، ويفصل بينها وبين الصحراوات الجنوبية^(٦٠). لننظر إليه يقول: (. . . وأما جبل نفوسة، فجبل عال منيف يكون على نحو ثلاثة أيام في أقل من ذلك)^(٦١)، يقول هذا في الوقت الذي نرى الجغرافيون الآخرون يبسطون الحديث عن هذا الجبل، وكيف أنه يشكل ذراعاً أو امتداداً لجبال أطلس، والتي عرفوها بجبال درن^(٦٢).

وعلى الرغم من أن ابن حوقل قد أشار إلى جبل أوراس كظاهرة تضاريسية ذات أثر في تاريخ مدينة باغاي وما حولها (وهي من مدن المغرب الأوسط: الجزائر الحالية)^(٦٣)، إلا أنه لم يفتن إلى أنه تشكّل مع جبال أخرى، سواء ما أشار إليه في حديثه عن جبلي برقة ونفوسة، أو ما أغفل الإشارة إليه، جزءاً من سلسلة جبال درن

(٥٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩.

(٥٩) يقول يسري الجوهري: جغرافية المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨١م، ص: ٢٧٠. (إن الجبل الأخضر، جزء من الحافة التالية للهضبة الكبيرة التي تحتضن الصحراء الكبرى، وتنحدر انحداراً تدريجياً كلما اتجهنا صوب البحر المتوسط، فتلتقي معه التقاء فجائياً، بحيث تبدو الحافة الشمالية للهضبة على هيئة حوائط شديدة الانحدار، ويمثلها: الجبل الأخضر، والجبال الطرابلسية). (وأنه قد سمي بهذا الاسم، نظراً لأن سطحه يغطي نباتات واحراج دائمة الخضرة، الأمر الذي دفع الأهالي في بعض الأحيان لأن يطلقوا عليه اسم الغابة)، حاشية (١)، ص: ٢٧١.

(٦٠) انظر سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ج ١، ص: ٦٦.

(٦١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٢.

(٦٢) انظر مثلاً، البكري (ت ٤٨٧هـ): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي سلان، الجزائر، ١٩١١م، ص: ١٦٠ - ثم انظر سعد زغلول عبد الحميد: نفسه، ج ١، ص: ٦٦ مع الحواشي.

(٦٣) ابن حوقل: نفسه، ص: ٨١.

التي عرفها الجغرافيون المسلمون بهذا الاسم، وهي التي تعرف حالياً بـجبال الأطلس بمجموعتها: أطلس التل، وأطلس الكبرى، والتي تشكل الظاهرة التضاريسية الكبرى التي شكّلت تاريخ بلاد المغرب العربي كله، وتمتد كالعمود الفقري فيه من أقصاه الغربي إلى أقصاه الشرقي، وبالتالي تركت أثرها في تاريخه السياسي والاجتماعي. ولهذا فيبدو غريباً أن يهمل ابن حوقل الإشارة إلى هذه السلسلة الجبلية، ولا سيما في بلاد المغرب الأقصى الذي يحتوي هو نفسه على جبال أطلس الكبرى أو العليا ذات الارتفاع الشاهق^(٦٤).

هذا التجاهل يدعونا إلى التساؤل: هل حقاً قام ابن حوقل بزيارة بلاد المغرب كلها؟. يبدو لنا أنه لم يستطع فعل ذلك، وإلاً فما الذي يمنعه من وصف هذه الظاهرة الجغرافية الكبرى؟، ثم أنه قد يكون معقولاً ومقبولاً هذا التساؤل، ولا سيما ونحن نعرف أن ابن حوقل نفسه وكما جاء على لسانه لم يشاهد الصحراء الغربية الكبرى، فلم لا يكون ذلك كذلك^(٦٥)؟.

وأياً ما كان الأمر، فلندع هذا ونتنقل مع ابن حوقل إلى مظهر تضاريسي آخر، وهو الأنهار والوديان. الحق أن مشاهدات ابن حوقل - وإن شئنا الدقة: ونقولاته - بشأن هذه المجاري المائية كانت أوسع وأغزر من المادة التي خصصها للجبال. فلقد

(٦٤) انظر السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير - العصر الإسلامي - وهو جزء من موسوعة تتحدث عن بلاد المغرب في العصور القديمة، والعصر الإسلامي، والعصر الحديث، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص: ١٢٨-١٣١ سعد زغلول عبد الحميد: نفسه، ص: ٦٦، ٧٠-٧٢. وانظر كذلك يسري الجوهري: جغرافية المغرب العربي، ص: ١٤٠.

(٦٥) انظر ابن حوقل: نفسه، ص ١٠١، وانظر كذلك آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب محمد عبد الهادي أبو رييدة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، جزءان - ج ٢، ص: ١١.

تناثرت الإشارات العديدة إلى تلك الأنهار والوديان، وهكذا نراه يتحدث عن أنهار: شلف، وتنس، ونهر فاس، وملاق، ونهر سجلماصة. وأما الوديان فعديدة: وادي تافنا، ووادي سفدد، ووادي شمس، ووادي سبه (سبو)، ووادي فاس، ووادي سلا، ووادي طابية أو تيجس، ووادي باغاي، ووادي سهر، والوادي المالح، ووادي ايناون، ووادي غمالتة، ومسون، وملوية، وصالح^(٦٦)، وغير ذلك. هذا فيما يتعلق بأنهار وأودية بلاد المغرب والسودان الغربي، أما الأندلس، فقد أشار إلى بعض من أنهارها وأوديتها، مثل قرطبة (الوادي الكبير). ونهر ملقون، ونهر التاجو أو التاجه^(٦٧). ولم يسم النهر الذي يصب في المحيط الأطلسي واكتفى بقوله: (...). والنهر الآخذ من سموره مدينة الجلالقة الى موضع مصبه من البحر المحيط). وبالطبع فهو يقصد بهذا النهر، نهر: دويره: Duero ويكون مصبه، مع نهر التاجو، ونهر: آنا: Guadiana الحد الجنوبي بين اسبانيا والبرتغال^(٦٨).

ولا يخلو حديثه عن صقلية من ذكر بعض أنهارها، مثل وادي عباس، ونهر روطه^(٦٩)، ولم يعن بتسمية بقية الأنهار الأخرى.

إن ابن حوقل وقد أشار إلى هذه الأنهار، يمكن أن يلاحظ عليه أنه لم يفتن إلى ذكر كيفية تكوينها، أو نشأتها، وهو أمر فطن إليه بعض الجغرافيين المسلمين بحسبهم

(٦٦) عن هذه الأنهار والوديان والمدن التي تطل عليها، انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٨، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢.

(٦٧) عن هذه الأنهار والمدن التي تطل عليها، انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٨، ٦٩، ١٠٥، ١١٠، ١١١.

(٦٨) انظر البكري: جغرافية الأندلس وأوربا، من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، منشورات دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص: ٧١.

(٦٩) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٤، ١١٦.

الجغرافي العميق^(٧٠)، كما أن ابن حوقل لم يهتم بتوضيح منابع هذه الأنهار، وإن كان لم يفتَ الإشارة إلى مصباتها، حيث حدد مصبات بعض تلك الأنهار والوديان في بحار بلاد المغرب، والأندلس، وصقلية، أي في البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي.

وعلى أية حال، فإن هذا التتبع الواسع للأنهار والأودية في بلاد المغرب والأندلس، كان يصب في نطاق اهتمامات ابن حوقل القائمة على تقديم وصف مفيد لاقتصاديات بلاد المغرب والأندلس، التي تعتمد في جانب كبير منها على النشاط الزراعي المرتبط بتلك الأنهار والوديان: رياً وسقياً - علاوة على الشرب - ثم توضيح حركة الملاحة النهرية أو التنقل النهري، وهو أمر عرفته بلاد المغرب والأندلس، ولم تخل منه^(٧١).

ونختتم الحديث عن المصادر المائية، التي كانت هي الأخرى مصدراً من مصادر الري والسقيا - بجانب الأنهار والآبار - وبلغت في بلاد المغرب خاصة عدداً كبيراً، جهد ابن حوقل في تتبعها، والإشارة إلى أهميتها في الزراعة والشرب^(٧٢).

وأخيراً نستطيع أن نختتم حديثنا الانتقائي هذا عن الجغرافيا الطبيعية بما تناوله ابن حوقل بشأن مظهر من مظاهرها، وهو التربة. ولقد تناول ابن حوقل هذا الموضوع في إشارة أو إشارتين عابرتين. فعند حديثه عن مدينة برقة الليبية قال عنها: (. . . وأرضها حمراء خلوقية التربة^(٧٣)). والحقيقة أنه إذا كانت كلمة خلوقية، تعني

(٧٠) من هؤلاء مثلاً القزويني الذي له آراء علمية قيمة حول نشأة الأنهار - وكذلك منابعها - حسبما لاحظ محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص: ٢٥١-٢٥٣.

(٧١) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٠، عن وادي سفدد، حيث الإشارة إلى أنه (وادي كبير، غزير الماء، يحمل المراكب).

(٧٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧ (وتعرف بعين تبودا)، ٨٨.

(٧٣) نفسه، ص: ٦٩.

لغويًا: الشيء الأملس^(٧٤)، فإن وصفه لها بالتربة الحمراء لم يلق تفسيراً منه . وليست ثمة ما يلتقي فيه وصف ابن حوقل مع الوصف العلمي لهذه الظاهرة الجيومورفولوجية، إلا هذا الوصف فحسب . ومن المعلوم أن السبب الذي أدى إلى إطلاق اسم برقة الحمراء على المدينة - وعلى التربة بالضرورة - هو نتيجة لما تحمله الأودية المنحدرة من الجبل الأخضر، صوب سهل بني غازي الساحلي من تربة طينية حمراء، غطت مساحات كبيرة من المدينة^(٧٥).

ويقول عن مدينة لبدة: (. . . وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر، خصبة^(٧٦)). ويمكن أن يلتقي هذا الوصف، رغم غموضه، مع ما تميزت به منطقة طرابلس من السبخات الملحة المتكونة من مفتتات الرمال والمجاري المائية، فأضافت إلى التربة الرملية، تربة رسوبية، يمكن وصفها بأنها تربة جيرية رملية^(٧٧).

(٧٤) انظر ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٨٩.

(٧٥) يسري الجوهري: جغرافية المغرب العربي، ص: ٢٧٠. وانظر تعريف التربة الحمراء العلمي عند يوسف التوني: نفسه، ص: ١١١.

(٧٦) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧١.

(٧٧) انظر فيليب رفة وزميله: جغرافية الوطن العربي، دراسة طبيعية اقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٧١م، ص: ١٨٩-١٩٠.

نماذج من الجغرافيا الحيوية عند ابن حوقل

إذا كانت الإشارات عن الجغرافيا الطبيعية للجنح الغربي للدولة الإسلامية عند ابن حوقل تبدو قليلة غير واضحة المعالم، فإن الإشارات المتعلقة بالجغرافيا الحيوية ليست بأحسن حالاً منها. وعلى الرغم من أن ابن حوقل ردّد كثيراً في مادته للجنح الغربي ألفاظ: المراعي، الماشية، السوائم أو السائمة^(٧٨)، إلّا أننا عبثاً نطلب تصوراً جغرافياً يوضح أو ينم عن إدراك للصلة بين المملكة النباتية والحيوانية باعتبار أن الجغرافية الحيوية العضوية أو أنها الدراسة الجغرافية للطبيعة الحيّة. وهكذا، فلم نعثر على ما يشير إلى إدراك الصلة بين مملكتي النبات والحيوان كما قلنا، وبين ظروف البيئة^(٧٩)، أو العلاقة بين الأشجار الطبيعية والحركة المناخية^(٨٠)، ومدى تأثير الشمس في نمو النبات الطبيعي^(٨١) وكمية الأمطار وحجمها: قلة أو كثرة. وبالطبع فقد انعدمت الإشارات كذلك إلى تحديد أنواع النبات، في ظل انعدام الحديث عن النباتات نفسها أو الغابات الطبيعية.

وهكذا فقد خلت المادة التي كتبها، بل نقول حرمتنا المادة التي كتبها من أن نتبين في بلاد المغرب الأقصى مثلاً أي إشارة إلى النباتات الألبية كالنعناع والخزامى،

(٧٨) انظر أمثلة لذلك في صفحات عديدة من كتابه، مثل، ص: ٧٠، ٧١، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٥، ١٠٠، ١١٠.

(٧٩) انظر محمد محمود محمد بن: نفسه، ص: ٢٦٤.

(٨٠) انظر محمد محمود محمد بن: نفسه، ص: ٢٧٣.

(٨١) محمد محمود محمد بن: نفسه، ص: ٦٧، حيث أظهر جهود القزويني في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، في هذا الصدد كمثال على الجغرافيين المسلمين الذين تناولوا هذا الموضوع.

وهي نباتات المرتفعات العالية كما هو معروف، حيث توجد سلسلة أطلس العليا أو الكبرى. كما خلت مادته كذلك من تبين تأثير المجاري المائية في نمو حشائش الصفاف والطرفاء والآس. وعلى الرغم من أنه تكلم عن الهضاب، إلا أنه لم يتحدث عن الأعشاب كالحلفا والغابات في مرتفعات الريف وجبال أطلس العليا، ولم نجد أي إشارة تدل على ذكر أسماء الأشجار الطبيعية، كالأرز والبلوط الفليني، والزنان، وشجيرات الصنوبر، والسرو الأبرية، وهي التي توجد على المرتفعات العليا. وقل نفس الشيء عن العرعر والسندرس، والكافور.

وبالجملة فلم نجد أية إشارة إلى المملكة النباتية، سوى الإشارة إلى المراعي بصيغة تعميمية. وفيما يتصل بالمملكة الحيوانية، فعلى الرغم من كثرة الحديث عن الماشية والسائمة، إلا أننا لم نجد مثلاً حديثاً يركز على إدراك أو بصيرة جغرافية تربط بين كثافة عددها، وتوزيع النبات الطبيعي الجغرافي، أو التوزيع الجغرافي للنبات^(٨٢)، كما أن من الملاحظ أن حديث ابن حوقل عن الماشية، إنما انصب على الحيوان المستأنس، وهي الأغنام، والماعز، والجمال، والأبقار، ولم نجد أية إشارات أو ذكر للحيوانات العشبية، مثل: الأرنب، والغزال، فضلاً عن إغفال الإشارة إلى الحيوانات آكلة اللحوم، كالفهد والذئب^(٨٣).

وعلى كل حال ينبغي علينا أن نلتمس العذر لابن حوقل، فلقد انصبت اهتماماته الجغرافية في رحلاته لبلاد المغرب نحو الجغرافية البشرية بمفهومها الواسع الذي يضم الجغرافيا الاقتصادية، مع الاهتمام بالجغرافيا الإدارية.

(٨٢) راجع: فيليب رفلة وزميله: جغرافية الوطن العربي، ص: ١٢٩ وما بعدها، وص: ١٥١، ١٧٤، ١٧٨، ١٩٣، ١٩٤ - سري الجوهرى: المرجع السابق، ص: ١٦٦، ١٦٧، ١٩٨، ٢٨٠، ٢٨١.

(٨٣) انظر فيليب رفلة: نفسه، ص: ١٥٢.

ومهما يكن من أمر، فلتتابع ابن حوقل في نماذج للجغرافية الحيوية، أوردتها في مادته للجناح الغربي للدولة، توضّح فهمه لهذا الموضوع. نصادف كثيراً عبارات دالة على المملكة النباتية، مثل: العشب^(٨٤)، المراعي المنتجة^(٨٥)، الأشجار^(٨٦)، وبالطبع بدون تحديد لما يقصده منها. وثمة إشارات عديدة، قد تكون لها بعض من الأهمية. ففي حديثه عن مدينة سرت الليبية، يقول: (ولهم مزارع في نفس البر، تُقصد نواحيها إذا مطرت، وتنتج مراعيها^(٨٧)).

وغير مفهوم في الحقيقة، ماذا يقصد ابن حوقل بهذه العبارة التي يتحدث فيها عن مدينة سرت كذلك، إذ يقول: (ولحوم المعز أغذى فيها من الضأن وأنفع، وتقوم لحوم الضأن فيها مقام لحم المعز بعدها، لأنها غير ملائمة لأهلها، وللسّافرة المجتازين من أجل مراعيها^(٨٨)). والجملة الأخيرة مهمة فهل تراه يتحدث عن مراعي ذات خصوصية نباتية للمعز؟ ربما يكون قد قصد ذلك. وفي حديثه عن مدينة بونة يشير إلى وجود مراعي للخليل السائمة للنتاج^(٨٩).

وأخيراً نجد إشارة عامة، وهو يختتم حديثه عن صادرات بلاد المغرب إلى الأقطار الإسلامية، سواء كانت أقطار بلاد الأندلس، أو بلاد السودان الغربي، أو المشرق، فيركز على أن ماشية البقر، هي أولى المواشي تصديراً، ثم الجمال، ثم الأغنام والماعز^(٩٠).

(٨٤) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٠.

(٨٥) نفسه، ص: ٧٠، ٧١.

(٨٦) نفسه، ص: ٧٧.

(٨٧) نفسه، ص: ٧٠.

(٨٨) نفسه، ص: ٧١.

(٨٩) نفسه، ص: ٧٧.

(٩٠) نفسه، ص: ٩٥.

نماذج من جغرافية الأجناس البشرية أو جغرافية السلالات البشرية

نود أن ننبه هنا إلى أن مادة هذا الفرع من الجغرافية قليلة يسيرة، لا تتجاوز الإشارة إلى أصل البربر، ثم إشارة أخرى إلى تأثير البيئة في اكتساب صفات جثمانية معينة، حسبما سنعرف بعد قليل.

وعلى أية حال فبخصوص القضية الأولى، وهي أصل البربر، نجد الإشارة اليهم كثفة أو عنصر سكاني غالب في بلاد المغرب، كما أنه يتميز بحضور مهني فاعل نشط، ولقد جاء ذلك في معظم صفحات مادة المغرب، إلى الدرجة التي لا يكاد حديثه عن مدينة من مدن المغارب الثلاثة: الأدنى^(٩١)، والأوسط^(٩٢)، والأقصى^(٩٣)، يخلو من الإشارة إلى البربر، بنفس التسمية، وأحياناً يميل إلى التصريح بذكر أسماء بعض تلك القبائل^(٩٤).

ولا يكاد ينتهي من اختتام رسم صورة المغرب بأحواله الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية والادارية، حتى نراه يشير الى أصل البربر حسبما رآها ويقدمها لنا كقضية محسومة إلى الدرجة التي لم يحتج معها إلى أية مناقشة. وهكذا نراه يقول: (والبربر

(٩١) عن بربر المغرب الأدنى، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٥.

(٩٢) عن بربر المغرب الأوسط، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٧.

(٩٣) عن بربر المغرب الأقصى، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٣، ٩٤، ٩٥.

(٩٤) مثل قوله عن بربر وهران، أنهم من قبيلة يزاجة. وكذلك عن مدينة مليلة التي يسكنها بطن من بني بطوية. ومدينة المسيلة، وعليها من البربر: بنو برزال، وبنو زنداج، وهوارة مزانة. وتاهرت بها بربر من كتامة. وقسطيلية ونقطة بها بربر من قبيلة زناتة ومزانة. إلى غير ذلك أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٩، ٨٥، ٩٣.

السكان بالمغرب قبائل لا يلحق عددهم، ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم، وتشعب أفخاذهم، وقبائلهم، وتوغلهم في البراري، وتبددهم في الصحارى. وجميعهم من ولد جالوت إلا اليسير منهم^(٩٥). ثم نراه بعد ذلك يعود الى تأكيد هذا القول عندما شرع يعدّد أسماء القبائل البربرية التي ناهزت مائتي قبيلة، فيقول إن أبوة جالوت تجمعهم جميعهم^(٩٦).

والإشارة إلى أنهم من ولد جالوت تضعنا أمام قضية سلالية أو اثنولوجية، وهي قضية أصل البربر، وهي القضية التي تحدث عنها المؤرخون القدامى والمحدثون: عرباً وأجانب، ولم يستطع البحث العلمي حسمها حتى الآن.

فابن حوقل هنا بتأكيد على أبوة جالوت للبربر، يلتقي مع عدد من المؤرخين العرب المسلمين والكتاب الأوائل من أمثال ابن الكلبي والطبري والمسعودي والبكري وابن سعيد وغيرهم، من الذين يذهبون هذا المذهب، وهو الرأي الذي لا يقره ابن خلدون، الذي يرى أن البربر من أبناء كنعان بن حام بن نوح - حسب تقسيمه للشعوب، وأنهم أقارب للفلسطينيين، وليسوا منهم، وهناك من يقول إنهم، أي البربر، من أصل يمني نسبة الى النعمان بن حمير بن سبأ^(٩٧).

(٩٥) نفسه، ص: ٩٧.

(٩٦) نفسه، ص: ١٠٠.

(٩٧) عن هذه الأقوال، راجع ما ناقشه سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ج ١ ص: ٨١-٨٥ مع الحواشي. وكذلك ما يذهب اليه البحث العلمي بشيء من التحفظ ويقول توفيقي إن البربر من أصول سامية، حامية، مصرية إيجية، اجتمعت في بلاد المغرب في فترات من التاريخ، وكوّنت الشعب البربري، أنظر على وجه الخصوص الصفحات ٨٢، ٨٥. ومن الملاحظ أن الباحثين المغاربة المحدثين يميلون إلى أن البربر والعرب من أرومة واحدة، أي الأصل السامي، ولذلك فالقول إنهم أي البربر من العرب، قول لا يجافي الحقيقة، أنظر مثلاً، عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ الحضارة المغربية، منشورات دار السلمي للتأليف والترجمة والنشر والطباعة والتوزيع، ثلاثة أجزاء، الجزء الأول، ١٩٦٣م، ص: ٢٣، ٣١.

وننتقل الآن إلى القضية الجنسية أو السلالية الأخرى التي تطرق إليها ابن حوقل. ففي معرض سرده لقبائل المغرب، توقف عند قبيلة: تانماك البربرية، فنراه يقول عنها ما نصه حرفياً: (. . . فيقال إن أصلهم سودان ابيضت أبشارهم وألوانهم، لقربهم إلى الشمال، وبعدهم عن أرض كوكو^(٩٨)، وهم لأمهاتهم من ولد حام). وفي موضع آخر، يقول: (. . . إن البيضان - وهو هنا ناقل فحسب - إذا تناسلوا في بلد السودان، سبعة أبطن، عادوا في سحتهم وبسوادهم. وإذا توالد السودان - نقلاً لرأي الكندي كذلك - في بلد البيضان سبعة أبطن عادوا في صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء).

والحقيقة أن ابن حوقل، وهو يروي هذه الأقوال لا نجده متحمساً لها بدليل أنه بدأ حديثه عن هذه القضية بعبارة التضعيف: «فيقال»، ثم لا يكتفي بهذا، بل يعقب على رواية الكندي التي ذكرها، وروينا نتفاً منها، يعقب بقوله: (وليس بمثل هذه الدعوة يتكلم على الأنساب^(٩٩)).

إننا نجد أنفسنا هنا أمام قضية من قضايا علم الأنثروبولوجيا، وهي: أثر المناخ في صفات الإنسان. ويخيل إلينا أن ابن حوقل كان مطلقاً على الجو الثقافي المحيط بهذه القضية، والذي مال إليه نفر من مثقفي عصره من المؤرخين والجغرافيين - نذكر منهم على سبيل المثال: المسعودي^(١٠٠) -، الذين رأوا أن الحرارة والبرودة تؤثران في

(٩٨) أرض كوكو، هي دولة سنغى القديمة التي قامت في السودان الغربي أو غربي افريقية وهي غير دولة سنغى الإسلامية، وتقع على نهر النيجر. أنظر محمد عبد الله محمد النقيرة: التأثير الإسلامي في غربي افريقية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ ص: ٢٩.

(٩٩) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٠١.

(١٠٠) راجع محمد محمود محمددين: نفسه، ص: ٢٦٣، حيث يناقش المسعودي وابن خلدون كذلك مناقشة جيدة.

تغير لون البشرة، وأن هذا التغير أو التشكيل للبشرة يتصاعد تبعاً لارتفاع درجة الحرارة أو البرودة. وهذه القضية كما هو معلوم، قد تناولتها المؤلفات التي تضمنت الحديث عن علمي الأنثروبولوجيا^(١٠١)، وكذلك علم الأثنولوجيا ونستطيع القول إن هذين العلمين لا ينكران الأثر الذي يحدثه المناخ في تشكيل الصفات الجثمانية للإنسان، ولكن بالطبع دون الوقوف عند قضيتي المزاج والحركة اللتين قد ذهبت إليهما مدرسة الحتم أو الجبر البيئي، والتي توارت حديثاً، لعدم وجاهتها^(١٠٢).

وعلى أية حال، فإن مما يلحق بموضوع البربر هنا، هو القول بأن ابن حوقل قد طوّق عنق المعرفة بذلك الثبوت الإحصائي الدقيق لقبائل البربر، والذي بلغ حوالي مائتي قبيلة، ولعله من أدق وأتم الثبوتيات عن البربر، بجانب ما جاء في موسوعة ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر.

(١٠١) انظر على سبيل المثال أحد هذه الكتب، وهو كتاب عبد العليم عبد الرحمن خضر: أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم، منشورات مؤسسة تهامة، سلسلة الكتاب الجامعي رقم ٣٣، ط ١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص: ٩٧- وما بعدها.

(١٠٢) عن نظرية الحتم أو الجبر الجغرافي وتطور مدرسته، تم نقدها من قبل العلماء. أنظر صلاح الدين الشامي: الفكر الجغرافي، الفصل الرابع، والخاتمة.

نماذج للجغرافيا الاقتصادية في الجناح الغربي للدولة الإسلامية

نجح ابن حوقل في تقديم، أو رسم صورة جيدة لجوانب النشاط الاقتصادي لهذه المنطقة من العالم الإسلامي. ولقد وجدنا أنفسنا أمام مادة غزيرة، شملت جوانب الحياة الاقتصادية. فمن الحديث عن المدن وخصائصها، إلى الحديث عن الطرق التجارية وطرق المواصلات، إلى الحديث عن الصلات التجارية بين بلاد الأندلس والمغرب، وبين المغرب وبلاد السودان الغربي من جهة، وبين المغرب والأندلس من جهة أخرى.

كل ذلك جنباً إلى جنب مع العرض التفصيلي للغلات الزراعية وأنواعها، ثم الأنشطة التجارية والصناعية، ثم أخيراً الثروتين السمكية والمعدنية.

النشاط الزراعي :

لاندري لم لم يستعمل ابن حوقل هنا حاسته الجغرافية في توضيح معالم هذا النشاط، وتناوله بالدقة العلمية المطلوبة؟. وإذا كان طبيعياً أن تمر المادة الجغرافية عند الرحالة : عرضاً ودون قصد، لأنه لم يقصدها لذاتها كما سبق أن ذكرنا، فإن الجغرافي الرحالة - وابن حوقل ممثل بارز لها - يجب أن يكون على النقيض من ذلك، وبالتالي : (فيتحكم في طبيعة المادة المعطاة عن كل إقليم)^(١٠٣). نقول ذلك، لنصل إلى القول بأنه على الرغم من التقصي الواسع للغلات الزراعية وأماكنها عند ابن حوقل، إلا أنه

(١٠٣) عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، منشورات دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط ٢، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ص : ١٨٧.

لم يبد منه أي تفسير لتكاثر تلك الغلات في مكان أو منطقة معينة من أقطار الجناح الغربي. فلم يفسر لنا مثلاً أسباب تكاثر القمح والشعير في مناطق محددة من المغرب، لتوفر دواعي زراعته، حيث التربة الطينية الثقيلة، وسيادة مُناخ البحر المتوسط، وتأثير وجود جبال الأطلسي، وكمية الأمطار الساقطة عليها، ثم بما تشكّله الثلوج الذائبة من خزانات للمجري المائية^(١٠٤). وهذا الذي يفسر لنا سبب تكاثر القمح والشعير في المغربين الأوسط والأقصى بكثافة ملحوظة أكثر من تونس، وبالطبع ليبيا. صحيح أن ابن حوقل أوضح لنا غنى المغربين الأوسط والأقصى بمدينها وقراها بالقمح والشعير، بحيث لم يخل حديثه عن مدينة أو قرية فيهما دون الإشارة إليهما، لكنه لم يوضح ذلك أو ينص على ذلك صراحة، أي أنه لم ينص على أن القمح والشعير من الغلات التي تعتمد على الأمطار الساقطة في فصل الشتاء بدرجة أساسية، وهو أحد مميزات نطاق إقليم البحر المتوسط، الذي يؤكّد الجغرافيون المحدثون أنه واحد من ثلاثة أنواع من المحاصيل، أعني بذلك المحاصيل التي تعتمد على مياه الأمطار الساقطة في الشتاء وتتمثل في القمح والشعير بصفة خاصة.^(١٠٥)

وحتى عندما أشار إلى أن القمح والشعير يقلّان، وأحياناً ينعدمان في إقليم الصحاري الحارة، أي في نطاق الإقليم السوداني الذي يمتد جنوب الصحراء، أو منطقة ما وراء أودغست وسجلماسة.^(١٠٦) التي لم ير أهلها من البربر: (البرّ ولا الشعير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمع بهما إلّا بالمثل^(١٠٧)) كما قال هو، دون أن

(١٠٤) محمد عبد الغني سعودي: أفريقية - دراسة شخصية الأقاليم، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص: ١١٧-١١٨، ١٤١، ١٥٤.

(١٠٥) انظر يسري الجوهري: المرجع السابق، ص: ١٦-١٧.

(١٠٦) سجلماسة من مدن المغرب الأقصى، وأودغست من مدن غربي أفريقية أو بلاد السودان الغربي. انظر ياقوت: المصدر السابق، ج ١، ص: ٢٧٧-٢٧٨، ج ٣، ص: ١٩٢-١٩٣.

(١٠٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٨ وكذلك انظر قبل ص: ٨٤.

يدرك السبب، مع أنه عاد فأكد أن (من بأدنى سجللماسة والمغرب من البربر، يأكلون البرُّ ويعرفونه والشعير ويزرعونه^(١٠٨)). والخلاصة أن ابن حوقل لم يربط في حديثه عن القمح والشعير - بل ولا غيرهما من المحاصيل - بينهما وبين المناخ، مثلما فعل جغرافيون آخرون^(١٠٩). وهكذا لم نجد عنده تفسيراً لسبب تكاثر الزيتون والتين في بلاد المغرب بالذات، بحكم مميزاته المناخية، حيث الصيف حار جاف، والشتاء دافئ مطر، أي خضوعه لنباتات المنطقة المعتدلة الدافئة. والحق أنه ليس مطلوباً من ابن حوقل هذا التوضيح العلمي الحديث، لكن كان عليه على الأقل أن يربط بين هذين المحصولين وبين المناخ، هذا فضلاً عن أنه يستغرب منه عدم الإشارة إلى مايعتمد على الريِّ الدائم أو السنوي من المحاصيل، سواء كانت الكروم أو الزيتون والتين ذاتهما، باعتبارهما من المحاصيل التي تتحمل الجفاف.

أما النخيل باعتباره من نباتات الصحاري الحارة، فقد أشار ابن حوقل إلى وجوده في النطاق الصحراوي - بما فيه من الواحات - ولكن بالطبع دون تفسير سبب ذلك، رغم أننا نعترف أنه ماترك منطقة من هذه المناطق داخل هذا النطاق إلا وأشار إليها ووقف كثيراً عند بعض مناطق معينة، فوصف تميُّزها وغناها الكبير بل وإعتمادها عليه بدرجة أساسية، بل واعتماد بقية من الأقاليم والمدن عليه كما سنعرف بعد قليل.

وعلى كل حال فلنورد الآن نماذج من حديثه عن الحاصلات الزراعية، وعلى رأسها القمح والشعير ثم الزيتون والتين، والكروم والفواكه، وبالطبع النخيل.

أما القمح والشعير فنستطيع متابعة زراعتها في مدن المغرب الأوسط وكذلك

(١٠٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٩.

(١٠٩) انظر محمد محمود محمددين: نفسه، ص: ٣٧٠ عن القزويني كمثّل هؤلاء الجغرافيين المسلمين.

في قراه: مرسى الدجاج، برشك، جزائر بني مزغناي، وهران، باغاي، بونة وبها قمح وشعير في أكثر أوديتها كما لا قدر له، على حد قوله، طنبه، المسيلة، قصر الأفريقي، أجر، وغير ذلك^(١١٠).

أما في المغرب الأدنى (ليبيا وتونس)، فقد قلّت إشارات ابن حوقل لأماكن زراعتها - أعني القمح والشعير - تبعاً لقلّة الأمطار، وهذا ما لم يلاحظه كما ذكرنا من قبل. ولذلك فلا نكاد نجد عنده سوى إشارات يسيرة: مثل مدينة باجة، فهي كثيرة القمح والشعير، والأربس وبها الحنطة والشعير أمر عظيم، وطانجنة بها حنطة وشعير. وهذه من مدن تونس أو إفريقية، وأما قسطلية وهي في عداد إقليم الواحات، فإنه لا يزرع بها من الشعير ولا القمح إلا زرع تافه^(١١٢). هذا عن مدن تونس، أما ليبيا، فإن جبل نفوسة في طرابلس وحده الذي جاء ذكره عند ابن حوقل بصدد القمح والشعير بمعنى أدق، فيقول: (.. وأكثر زروعهم الشعير، وإياه يأكلون)^(١١٣).

على أننا نشعر هنا بأن ابن حوقل، وإن كان لم يشر إلى كثافة أو تعدد أماكن زرع القمح والشعير في المغرب الأدنى، إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون إلا قياساً مع الفارق أو قياساً نسبياً، فتونس وليبيا ليستا فقيرتان إلى القمح والشعير إلا بالقياس مع المغربين الأوسط والأدنى. ولقد فات ابن حوقل وهو يزور بلاد المغرب إبان وجود الخلفاء الفاطميين في المغرب - قبل إنتقالهم إلى مصر (سنة ٣٦٢هـ)، - أن يلحظ أن مدينة طرابلس في ليبيا مثلاً كانت ترسل القمح والشعير من كثرتها ووفرتهما أو

(١١٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٥، ٨٦.

(١١١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩١.

(١١٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٢، وانظر ص: ٧٥ حيث إشارة مجملة للحبوب والزيت في مدينة تونس.

(١١٣) نفسه، ص: ٧٧، ٨٦، عن المدن التونسية، وص: ٩٢ عن قسطلية.

توافرها في العصر الفاطمي نفسه إلى صقلية، معونة للمجاهدين، وذلك من المزارع التي تقع في سهل وادي سوفجين^(١١٤). وفي تونس انتشرت مزارع القمح كذلك في سهول وادي مجردة^(١١٥).

أما الزيتون، وهو غلة إقليم البحر المتوسط، كما هو معروف، والواقع ضمن نباتات المنطقة المعتدلة الدافئة، لم تخل منه بالطبع أقطار المغرب العربي، ونستطيع أن نمضي مع ابن حوقل إلى مدينة قابس وزيتها الشهير، وسفاقس وهي مدينة جل غلاتها: الزيتون والزيت، وبها منه مالميس بغيرها مثله كما ذكر هو نفسه^(١١٦)، ثم تختفي الإشارات عنه في بقية أقسام بلاد المغرب الأخرى بل وحتى في المغرب الأدنى. وأما التين، فتتوزع مزارعه في عدة مدن من مدن المغرب العربي، منها: طرابلس، حيث يوجد في جبلها، وجزائر بني مزغناي، ومرسي الدجاج، وسوق إبراهيم^(١١٧). ثم أيضاً يكتفي بذلك. ولعل هذا يعد أمراً مستغرباً، فالزيتون أهم غلة في بلاد المغرب العربي بعد القمح والشعير. ولسنا ندري لم هذا التجاهل من ابن حوقل؟.

ولم تحظ الأندلس، ولا صقلية بأية إشارات عن الزيتون والتين فيهما، اللهم إلا ما ذكره عن وجوه التين بأشبيلية^(١١٨).

وإذا كان مفهوم أن يتجاهل صقلية والأندلس قبلها - ربما بسبب منهجه

(١١٤) صالح مصطفى مفتاح: برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر - رسالة ماجستير (لم تنشر)، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص: ١٧٠.

(١١٥) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ج ٢، ص: ٤٠٩.

(١١٦) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٢ عن قابس، وص: ٧٣ عن سفاقس.

(١١٧) نفسه، ص: ٧٧، ٧٨، ٨٩، ٩٠.

(١١٨) نفسه، ص: ١١٠.

التعميمي - فإنه لا يصح أن يتجاهل مدناً في المغرب العربي اشتهرت بزيتونها، مثلما اشتهرت قابس وسفاقس، فهناك لبدة بليبيا، التي انتشرت فيها مزارع^(١١٩) الزيتون، وفي بلاد الجريد بتونس، وبلاد الزاب في الجزائر، وغيرها^(١٢٠).

ويشكّل القطن، غلة مهمة في بلاد المغرب، حسبما شاهد ولاحظ ابن حوقل، وقد اشتهرت به عدداً من المدن منها: مدينة تونس ويحمل منها إلى القيروان، وكذلك مدينة بونة، والبصرة وكرت وماستة، وطبنة والمسيلة في المغرب الأقصى^(١٢١).

وأما الكروم، فقد انتشرت مزارعه في كل بلاد المغرب العربي والأندلس وصقلية، وقد تتبّع ذلك ابن حوقل، في مدن: سرت، وسفاقس، والمسيلة، ونمالة، وكرانطة، وترفانة، وفاس، واكتفى بالإشارة إلى أن الأندلس وفي كل مدنها كانت تنتشر مزارع الكروم، مغ غيره من الغلات أو الفواكه، وأخيراً هناك مدينة بالرمو في صقلية والتي اشتهرت بالكروم والفواكه^(١٢٢).

والخوخ من الفواكه المشهورة والتي انتشرت مزارعه في غير ما مدينة من مدن المغرب، مثل بلدة، وفاس^(١٢٣)، وغيرهما. وشاهد ابن حوقل مزارع عديدة وواسعة للسفرجل، في كل من: برشك، وتنس، والمسيلة، والخضراء، وغير ذلك^(١٢٤).

(١١٩) صالح مفتاح: برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية، الى مصر، ص: ١٧٥.

(١٢٠) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص: ٨، ٩، ٥١.

(١٢١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٥، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٥.

(١٢٢) عن ذلك، أنظر الصفحات، ص: ٧٠، ٧٢، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ١١٠، ١١٧.

(١٢٣) نفسه، ص: ٧١، ٩٠.

(١٢٤) نفسه، ص: ٧٨، ٨٥، ٨٩.

ومما شاهده ابن حوقل، أو لعله نقله : كثرة المناحل في بلاد المغرب بمختلف مدنه، وهكذا نجد الإشارة إلى العسل، في كل من : باشوا، بونة، جزائر بني مزغناي، تاهرت^(١٢٥). ولم يفت ابن حوقل كذلك الإشارة إلى مزارع قصب السكر، والجوز، والقنب^(١٢٦)، وغير ذلك من أنواع الغلات الأخرى.

وأخيراً، فإن النخيل، وهو الغلة الهامة بما له من قيمة غذائية عالية، فقد انتشرت مزارعه في الواحات، في كل من : أوجلة التي تعتبر ذات نخيل عظيمة وغلات من التمر جسيمة كما قال هو نفسه، وجزيرة ودان لا تقصر في رخص التمر وكثرتها وجودتها عن أوجلة، وسرت مدينة بها نخيل تجتنى أرطابها، والحمة، وقفصة، وأغمات، على أنها كلها لا تلحق بإقليم قسطنطينية (بلاد الجريد) التي تتميز بنخيلها الكثيف، وهي مغوثة أفريقيا بتمورها، وكذلك في بلاد السرس الأقصى^(١٢٧).

النشاط الصناعي :

شدّ ابن حوقل - مثلما شدّ رصفاه من الجغرافيين الرحالة في تنقلاتهم في العالم الإسلامي - الصناعات وأخبارها، وأنواعها، وأنماطها، سواء ما كان منها : أولياً، أو مركباً، أو غير ذلك . وكان كثيراً ما يحالفهم الصواب في تحليلهم لتمييز منطقة من المناطق بصناعة أو صناعات معينة^(١٢٨).

بيد أن هناك قدراً مشتركاً، أو لنقل إهتماماً مشتركاً رئيسياً، يكاد يجمع بينهم،

(١٢٥) نفسه، ص : ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٥.

(١٢٦) نفسه، ص : ٩٠ (قصب السكر)، ص : ٨٩ (الجوز)، ص : ٧٥، ٩٠ (القنب).

(١٢٧) نفسه، ص : ٧٠، ٩٠، ٩٢، ٩٩.

(١٢٨) راجع مثلاً عن هذه الاهتمامات : محمد محمود محمددين : المرجع السابق، ص :

٣٧٧-٣٨٦.

وهو ذكر صناعة الثياب، أو الملابس بأنواعها المختلفة^(١٢٩). وابن حوقل في وصف مشاهداته في بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي، وبلاد الأندلس، وصقلية، رصد لنا صناعات على غاية من الأهمية. وقد استمدت معلوماته عنها، أهميتها من كونه غداً مرجعاً لكل من يؤرّخ لهذا الجانب المادي من الحضارة الإسلامية، حسبما سنعرف بعد قليل. وكيف كان الأمر، فإن من الصناعات التي لاحظها وذكرها بالتالي في كتابه، صناعة الملابس التي اشتهرت بها أكثر من مدينة من مدن المغرب والأندلس، مثل إجدابية ولبة بليبيا، ذات الأكسية الفاخرة، وقابس بمنسوجاتها الحريرية، ومدينة البصرة المغربية بصناعاتها القطنية وقسطيلية.

أما الأندلس، فقد اشتهرت معظم مدنها بصناعة ثياب الخبز والحرير، والديباج، والقز، ولم يفته الإشارة إلى اشتهار الأندلس كذلك بصناعة ثياب من الخبز السكب والسفيق المبطن، أو بمعنى أدق المغطى بالشمع، ليمنع المطر من أن يصل إلى لابس على نحو مشابه اليوم للباس : rain-coat. واشتهرت مدينة بجانة خاصة بأرديتها التي حملت إلى المشرق، وأخيراً، فقد لاحظ اشتهار صقلية بثياب الكتان^(١٣٠).

ومألف نظره - دون أن يحاول التعليل أو الربط - اشتهار بلدان المغرب خاصة بالصناعات الجلدية والصوفية، والتي تعتمد كما هو معلوم على التاج الحيواني. وهكذا نراه يتحدث عن اشتهار برقة بالجلود غير المدبوغة، التي تحمل إلى مصر لدبغها. وكذلك اشتهرت قابس بالجلود التي تدبغ بالقَرْط^(١٣١)، وتعم أكثر المغرب،

(١٢٩) أنظر آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، ص: ٢٣٥ وتفسيره لهذا الإهتمام من قبل الجغرافيين والرحالة المسلمين.

(١٣٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩، ٧١، ٧٢، ٨١، ١١٠، ١٢٤.

(١٣١) راجع ابن منظور: المصدر السابق، ج ٧، ص: ٤٥٤، حيث يقول: القَرط: شجر يدبغ به.

فتأتي من طيب الرائحة، ونعومة اللمس بمثل حال الأديم الجرشي . ووصفه هذا يعد في الحفيفة مادة أصيلة .

وعلى الرغم من أنه تحدث كثيراً عن صناعة الصوف^(١٣٢) إلا أنه لم يُعن بتوضيح نقطة مهمة في هذا الصدد. فهل المقصود: الصناعة الصوفية المتعلقة بالملابس والأكسية، أم صناعة الحصر، والفُرش، والحنابل؟. لا ندرى بالضبط، وإن كان قد أشار في موضعين، بل ثلاثة إلى أنه يعني بصناعة الصوف: الموضعين معاً. (١٣٣).

ونختتم حديثنا الإنتقائي هذا من الصناعات التي شاهدها وذكرها ابن حوقل بما ذكره عن صناعة ورق البردي، أو البربر، والذي يعمل منه الطوامير (الصحائف)، وقد قدم لنا معلومة تاريخية غاية في الأهمية، تدل على حال صناعة أدوات الكتابة في إفريقية، أو تونس، وهي البردي، والرق، والكاغذ؛ حيث أشار إلى أن صقلية قد غلب عليها هذا البربر، الذي لا يوجد على وجه الأرض نظير له سوى في مصر، وأن أمراء الأغالبة - حكام تونس - ومن بعدهم الفاطميين كانوا يحتكرون استغلاله، واستعماله في الأعمال الكتابية الحكومية فحسب. هذا بجانب أن أكثره - أي البردي، أو البربر - كان يقتل حبلاً للمراكب. والحق أن إشارته هذه المبينة على الملاحظة، أو المشاهدة، قد استقبلت بالثناء الكبير عليه من قبل مؤرخي الجانب المادي من الحضارة الإسلامية. (١٣٤).

(١٣٢) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٧، ٩٢، ٩٦، ١١٠.

(١٣٣) أنظر نفسه، ص: ٩٢ عن الحنابل التي تصنع في قسطنطينية، ص: ١١٠ عن الملابس الصوفية الأندلسية.

(١٣٤) أنظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، ط ٢، ١٩٧٢م، ٣ أقسام، القسم الثاني، ط ٢، ١٩٨٢م، ص: ١٦٠-١٦١، حيث التقدير لابن حوقل - وانظر كذلك آدم متر: المرجع السابق، ج ٢، ص: ٣٥٦-٣٦٦.

وأخيراً، فابن حوقل شأنه شأن كل جغرافي رحالة - بل وغير رحالة - لا يترك في تدوينه للملاحظات ومشاهداته في الجناح الغربي للدولة الإسلامية، الإشارة إلى الثروة المعدنية هناك، على أنه لم يوضح لنا مانوع تشكيلها، أي ما نوع الصناعات التي قامت عليها؟. فلقد تحدث عن معدن الحديد، ووجوده في عدة مدن من مدن المغرب والأندلس، مثل بونة التي يحمل منها إلى الأقطار الغزير الكثير، والإربس ومجانة، ومدن الأندلس. كما أشار إلى معدن المرجان، واشتهار بعض مدن المغرب به، مثل مرسى الخزر (بالجزائر)، وقد كان فيها بكمية لا يوجد في غيرها من كثافته، وكذلك تنس، وسبتة (١٣٥).

أما الأندلس، فقد اشتهرت بمعادن: العنبر، والزيق، والحديد، والرصاص ومعدن الطفل الجيري. وقد حرمانا ابن حوقل من التعرف على الصناعات التي قامت على تلك الصناعات، وهو أمر لم يفت غيره من الجغرافيين الرحالة، ممن زار بلاد المغرب والأندلس. (١٣٦).

النشاط التجاري :

لعل من الطبيعي جداً أن يكون الحديث عن النشاط التجاري في الجناح الغربي للدولة الإسلامية، من أغزر الإهتمامات الجغرافية في رحلاته الجغرافية تلك،

(١٣٥) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٦، ٧٧، ٧٩ عن معدن المرجان، وص: ٧٧، ٨٤، ٨٦ عن الحديد، وص: ١١١ عن معادن الأندلس.

(١٣٦) أنظر السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج ٢، ص: ٤٠٩-٤١٠، حيث الإشارة إلى الصناعات التي قامت على الثروة المعدنية بالمغرب، ومن أشار إليها من الجغرافيين المسلمين، وكذلك أنظر عن صناعات الأندلس المعدنية، مثلاً: محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري - الحياة الاقتصادية والاجتماعية، منشورات الدار التونسية للنشر، ١٩٩٤م، ص: ١٥٣-١٦٠، حيث الإشارة الواسعة لأقوال الجغرافيين والمؤرخين المسلمين عن ذلك.

بل وتأتي على رأسها. ونقول طبعياً، إنطلاقاً من نقطتين أساسيتين، أولهما:

١ - ما صرح به نفسه في مقدمة كتابه، من كونه تاجراً جوالاً - إلى جانب صفة الجغرافي -، وهو ما أكد عليه كل من كتب عنه، وعن كتابه (١٣٧).

٢ - التطبيق العملي للمنهج الذي أخذ به نفسه كواحد من ممثلي المدرسة الجغرافية الإسلامية الإقليمية القائم على جعل النشاط الاقتصادي - والتجارة في مقدمته - حجر الزاوية في مميزاتها التي انطبعت بها، والذي خصصته لمملكة الإسلام وأقاليمها. (١٢٨).

ولذا فليس غريباً أن يولي ابن حوقل النشاط التجاري في هذا الجناح الغربي من الدولة إهتماماً وعناية كبيرة. وعلى الرغم من أننا لم نتبين - على الأقل في هذا الجناح -، أي أثر لانعكاس مصالحه التجارية في رحلاته، كما قال كراتشكوفسكي في كتابه السابق (١٣٩)، ولا أي أثر كذلك - على الأقل هنا أيضاً - لما قاله عبد الرحمن حميدة (١٤٠) من أن ابن حوقل، كان منظراً لسوق إسلامية مشتركة. أقول على الرغم

(١٣٧) لعل الجملة التي عول عليها كل من كتب عن ابن حوقل وعن صفته: تاجراً، هي التي وردت في المقدمة عندما قال حاكياً عن نفسه كيفية تأليفه كتابه: (وأعاني عليه تواصل السفر... مع ماسبق به القدر من استيفاء الرزق والأثر... الخ). ثم راجع الزركلي: المرجع السابق والجزء، ص: ١١١ - عمر رضا كحالة: المرجع السابق والجزء، ص: ٥، حيث صرحا بكونه تاجراً - وكذلك راجع كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١٦.

(١٣٨) راجع كراتشكوفسكي: ص: ٢٥ - ٢٧، الفصل الخامس، ص: ١٦٧ - ١٧٥، الفصل السادس، ص: ١٩٠ - ٢٠١، الفصل السابع ص: ٢١٤ - ٢٣٥، حيث خصائص هذه المدرسة الجغرافية الإقليمية - نفيس أحمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ص: ٤٢ - ٥٣.

(١٣٩) أنظر، ص: ٢٢٠.

(١٤٠) المرجع السابق، ص: ٢١١.

من أننا لم نتبين ذلك، إلا أننا بالمقابل نوافق كل من أكد على ظهور الحس التجاري وشيوعه ليس في جوانب حديثه عن النشاط التجاري في جناح الدولة الغربي، بل وفي حديثه عن مملكة الإسلام بعامة. ولعل هذا يقودنا، وقد وصف بالتاجر الذكي^(١٤١)، إلى قضية أخرى، ليس هنا مجال اثباتها أو نفيها، وهي قضية تخفيه - أي ابن حوقل - تحت ستار التجارة، لتبدو من وراء ذلك مهمته السريّة، وهي الجاسوسية^(١٤٢) للفاطميين الذين أقاموا دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ، ثم

(١٤١) وجدنا هذا النعت عند حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الثالث، ص: ٣٠٢، عندما قال عن ابن حوقل مانصه: (ابن حوقل عالم بغدادي زار المغرب والأندلس في القرن الرابع الهجري متقناً بمهنة التاجر الذكي).

(١٤٢) قضية الإشارة إلى أن ابن حوقل كان جاسوساً أو داعية للفاطميين - أصحاب المغرب ثم مصر وما وراءها بعد ذلك، قضية ما خلّت منها أي من المؤلفات التي تحدثت عن ابن حوقل الجغرافي الرحالة، ولعل أول من أطلقها المستشرق الهولندي راينهاردت دوزي في كتابه تاريخ مسلمي أسبانيا، وعنه أخذ كثير من المستشرقين الذين وافقوه على ذلك إعتقاداً منهم على ما كان يبيده ابن حوقل في كتابه من ميول فاطمية واضحة، ومن تهوين بشأن الأندلس في ظل بني أمية، وظهور روح العداء لهم في ثنايا كتابه. ولقد أخذ كثير من الكتاب العرب الذين ذكروا ابن حوقل في مصنفاتهم، يشيرون إلى هذه القضية وكأنها قضية مسلّمة. والحق أننا لم نعثر من خلال القراءة النقدية الفاحصة لمادة الجناح الغربي من الدولة الإسلامية في كتاب ابن حوقل، أي دليل أو نص، يثبت صلته بالفاطميين. وحتى عندما زار المغرب عندما بدأ جولاته السياحية سنة ٣٣١هـ، ودخله، ونص على ذلك في مواطن عدة من كتابه مثل حديثه عن مدينة المهدية التي بناها الخليفة الفاطمي القائم بالله ٣٠٨هـ، قال إنه أدركها سنة ست وثلاثين وملكها كرامة وجيوشها حامية. الخ. (أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٣)، ولقد تتبعت آخر إشارة تدل على بقاءه في بلاد المغرب، حتى سنة ٣٦٢هـ عندما رحل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر، فوجدتها تقف عند سنة ٣٦٠هـ (أنظر، نفسه، ص: ٩٤). ولم أعثر أبداً على أية إشارة مذ دخل ابن حوقل المغرب تدل على أنه اتّصل بالفاطميين أو أحد من وزرائهم ورجال دولتهم. والخلاصة أنني أكاد أجزم بأن ما ذكر من أنه، أي ابن حوقل، كان جاسوساً أو داعية فاطمي، قضية لا يسندها دليل تاريخي.

رحلو إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، تاركين بلاد المغرب تحت حكم أتباعهم الصنهاجيين أو الزيريين، وفي إطار الصراع بين هذه الدولة التي بسطت نفوذها على معظم المغرب العربي، وبين خصومها السياسيين في الأندلس، أعني بذلك الأمويين^(١٤٣).

وعلى أية حالة، فالمتتبع للنشاط التجاري، الذي شاهده ابن حوقل، مثل الإشارة إلى المراكز التجارية والبرية والبحرية، إلى الإشارة لصنوف التجارة الصادرة والواردة، إلى الإشارة للتجارة الدولية بين الجناح الغربي للدولة الإسلامية - باعتباره ضمن مملكة الإسلام - وديار الروم، والفرنجة، والسودان، خارج نطاق العالم الإسلامي. وكذلك حديثه عن طرق المواصلات، والطرق التجارية، أو جغرافية الطرق والنقل يجد القاريء أنه متعدد الاهتمامات. ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن هذه الاهتمامات، كانت قدراً مشتركاً لدى الجغرافيين المسلمين بعامة والجغرافيين الرحالة منهم بخاصة. كما أن من المناسب الإشارة إلى أن حديث ابن حوقل عن التجارة الدولية بين الجناح الغربي للدولة الإسلامية والأقطار التي ذكرناها، يعتبر مادة

وعلى كل حال فكراتشكوفسكي: نفسه، ص: ٢٢١ الذي ينقل عنه الكتاب العرب المتأخرون لا يقطع بذلك، بل ويورد المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال صاحب الدراسات الأندلسية المعروف الذي يرى في ابن حوقل مجرد عميل للعباسيين والفاطميين. ولقد رأيت نفيس أحمد: المرجع السابق، ص: ٦٩ يقلل من ذلك ومن أثره، وكذلك فعل صلاح الدين الشامي: نفسه، ص: ٢٤٣.

(١٤٣) عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب، ثم ارتحالها إلى مصر والمشرق، أنظر، ابن حماد (ت ٦٢٨هـ): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة التهامي نفرة وعبد الحليم عويس، منشورات دار العلوم، الرياض، ١٤٠١هـ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وسورية، وبلاد المغرب، وهو أوسع مؤلف حديث كتب عنهم تقريباً، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨١م. وهناك عدد كبير من المصادر والمراجع. وقد اكتفينا بمؤلفين أحدهما قديم والآخر حديث.

أصيلة اعتمدت عليها الدراسات الحديثة، سواء أكانت جهوداً تأليفية عادية^(١٤٤)، أم جهوداً علمية أكاديمية^(١٤٥).

وبعد هذا الإيضاح، فلا بأس من إبراز نماذج لتلك الجوانب التي ركز عليها. وفي هذا الصدد تنبغي الإشادة بجهودهم في تتبع المراكز التجارية المغربية، سواء تلك المراكز التجارية البحرية التي تأثرت بموقعها الجغرافي، أو تلك المراكز التجارية البرية، التي تأثرت كذلك بموقعها الجغرافي من أقسام بلاد المغرب العربي الثلاثة: الأدنى، والأوسط، والأقصى^(١٤٦). هذا بجانب ما فرضته الظروف المناخية والبشرية من تميز مدن بعينها بتجارات محدّدة دون غيرها في أحيان، وأكثر من غيرها في أحيان أخرى.

وهكذا، وفي إطار جهدنا الإنتقائي، نستطيع أن نتابع ابن حوقل، وهوشير إلى برقة بقوله: (.. وبها من التجار، وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع، طلاباً

(١٤٤) أنظر مثلاً حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية، منشورات دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٦م، الباب الثالث حيث يعتمد على ابن حوقل في الحديث عن التجارة بين بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب - محمد عبد الله النقيرة: التأثير الإسلامي في غربي إفريقية، الفصل الأول - آدم متز: المرجع السابق: ج ٢، ص: ٣١٧، ٣٧٤، ٣٧٩ - كراتشكوفسكي: نفسه، ص: ٢١٩ - ٢٢٢.

(١٤٥) هناك رسالتان علميتان توضحان مدى اعتيادهما على المادة التي كتبها ابن حوقل بهذا الصدد.

انظر عبد العزيز الفيلاي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، رسالة ماجستير، وقد طبعت بعناية المؤسسة الوطنية للكتاب، ط ٢، ١٩٨٣م، ص: ٩٦ - ١٣٠ - الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي. رسالة ماجستير من جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، (طبعت) منشورات دار المجمع العلمي، جدة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، الفصل الثالث، العلاقات الاقتصادية ص: ١٢٥ - ١٧٣.

(١٤٦) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٩٦، وغير ذلك.

لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغربين ومشرقين، وذلك أنها تنفرد في التجارة بالقطران والجلود المجلوبة للدباغ بمصر، والتمور الواصلة إليها... وضروب المتاجر الصادرة من المشرق، والواردة من المغرب). وهناك مدينة سرت التي تمر بها القوافل المجتازة - إلى بقية بلاد المغرب بالطبع -... و (ترد إليها المراكب بالمتاع، وتصدر عنها بشيء منه... الخ).

أما تنس، فهي: (أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم، ويقصدونها بمتاجرهم، وينهضون منها إلى ماسواها). (١٤٧).

أما المراكز التجارية الداخلية أو الصحراوية الأشهر على الإطلاق في بلاد المغرب، فهما دون شك سجلماسة، التي تعد بمثابة بوابة بلاد السودان، ثم أودغست. هاتان المدينتان - المركزان - اللتان استمدتا أهميتهما لا من صلة سكانها العرقية ببلاد السودان الغربي فقط، بل لتحكمهما، ولا سيما سجلماسة في التجارة الأشهر والأغلى بين بلاد المغرب وبلاد السودان من جهة، وبين بلاد الأندلس - عبر المغرب - وبلاد السودان من جهة أخرى. ونعني بالتجارة الأشهر والأغلى: تجارة معدن الملح الجبلي الذي كانت حاجة بلاد السودان الغربي له مجالاً واسعاً لدراسات وبحوث علمية جادة، والتي وضع لها الأهمية القصوى لهذا الملح، الذي كاد بل زاد عن أهمية الذهب لدى أهل السودان، هذا المعدن الذي كانت بلاد المغرب تقدمه، وتسيطر على مناجمه طيلة ألف عام. والمعدن الآخر، معدن التبر أو الذهب، الذي كانت بلاد السودان تقايضه بالملح مع بلاد المغرب، هذا إلى جانب مبادلات تجارية أخرى عبر سجلماسة وأودغست، كالنحاس والعبيد والحلي وغير ذلك (١٤٨).

(١٤٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩ (بقعة)، ٧١ (سرت)، ٧٨ (تنس)، ٧٨ (مرسي موسى).
(١٤٨) أنظر حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص: ٦٩ - الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، ص: ١٢٩ - ١٣١، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٤، ١٥٨.

والحق أن مادة ابن حوقل هنا أصيلة، فما من أحد تعرض لذلك، إلا واعتمد عليه، وعلى وصفه لهذين المركزين التجاريين، والمراكز التي ترتبط بها شمالاً وجنوباً بين المغرب، والسودان الغربي.

ولنختتم حديثنا عن التجارة والنشاط التجاري بالإيجاز الذي اختصر به ابن حوقل قضايا وشجون ذلك النشاط، ثم إلى إشارة تتصل بسلعة تجارية أندلسية لها دلالاتها التاريخية، وهي تجارة الرقيق الصقالبة، وأخيراً لمحة عن طرق المواصلات والطرق التجارية بين أقسام المغرب الثلاث، وبينها وبين بلاد السودان الغربي.

أما الموضوع الأول، فقد قال عنه: (فأما ما يجهز من المغرب الى المشرق، فالمولدات الحسان الروقة . . والغلمان الروقة الروم، والعنبر، والحرير، والأكسية الصوف الرفيعة والدنية الى جباب الصوف وما يعمل منه، والأنطاع، والحديد، والرصاص، والزبيق، والخدم المجلوبون من بلاد السودان، والخدم المجلوبون من بلاد الصقالبة على الأندلس^(١٤٩)).

وأما الموضوع الآخر، فهو الموضوع الذي شاهده وأكد عليه، وعلى معرفته الجيدة به، نعني بذلك تجارة الرقيق الأوروبي الذين أطلق عليهم الصقالبة، وهي التجارة التي احتلت أخبارها حيزاً واسعاً في كتابات الجغرافيين المسلمين الرحالة لبلاد الأندلس، والتي أبرزت دور الأندلس التجاري في هذه المبادلة التي كان مدارها المكاني بلاد بلغاريا العظمى أو الكبرى، كما عرفها به الجغرافيون المسلمون، والتي يقوم بها وسطاء منقطعون لها ليس في الأندلس، فحسب، بل في جميع بلدان البحر المتوسط. ولنستمع الى ابن حوقل، يقول عن الأندلس: (. . ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجوارى، والغلمان الروقة من سبى افرنجة وجليقية، والخدم الصقالبة -

(١٤٩) ابن حوقل: نفسه، ص ٩٤ - ٩٥.

وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان، فمن جلب الأندلس، لأنهم عند قربهم منها يخلصون، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود^(١٥٠).

وأخيراً، ففيما يتصل بجغرافية الطرق والنقل، فبوسعنا القول إن ابن حوقل، وهو الذي وقف، وشاهد، ولاحظ، لم يقصر في هذا الجانب. فلقد تتبع تلك الطرق الممتدة بين أقطار المغرب العربي بأقسامه شرقاً وغرباً، وبينه وبين بلاد السودان الغربي جنوباً. ورسم لوحة تكاد تنطق في وضوحها لتلك الطرق. ولقد تفاوتت تلك الطرق: أهمية واتساعاً، وتعددت وكذلك صفاتها. فمن طرق محلية قصيرة في داخل القسم نفسه، كالذي بين مدن المغرب الأوسط - الجزائر -، والطريق العام الرئيسي الطويل الممتد من المغرب الأدنى، الى المغرب الأقصى، أي من افريقية، حتى فاس، ماراً بمدن رئيسية هامة كالقيروان، وباغاي، وقسطنطينة، وميلة، و... و... حتى فاس. ثم طريق بين المغرب الأدنى والأوسط، غير ذلك، وهو الذي بين القيروان والمسيلة، يمر بعدة مدن هامة كالأربس، قصر الأفريقي، وأشير.

وهناك الطريق بين المغرب الأقصى والأوسط، أي بين فاس - المسيلة، وقد جاء به ابن حوقل معكوساً على حد قوله، وتقع عليه عدد من المدن الهامة، مثل: كرماطة، ممر جبل تازا، تاهرت، شلف، و... و... حتى المسيلة^(١٥١).

على أن أكبر ما أسدته مشاهدات ونقول ابن حوقل، هو وصفه للطرق التجارية الصحراوية بين أقطار المغرب العربي، والمراكز التجارية المشهورة بـ: سجلماسة وأودغست تحديداً، وبين بلاد السودان، حيث تجارة الملح والذهب،

(١٥٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٠٥ - ١٠٦، ثم أنظر كذلك المادة المهمة جداً عن الصقالبة وديارهم ونشأتهم، التي كتبها أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص: ١٩٧ - ١٩٩.

(١٥١) عن هذه الطرق والمسافات بينها، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٤ - ٩٢.

والعبيد، والنحاس، وغير ذلك، كما قلنا سابقاً. هذه الطرق الصحراوية، والتي اشتهر منها: اثنان: الأول من سجلماسة - أودغست - غانة في بلاد السودان ثم يتفرع منه عدة طرق ككوغة وسامة، و... و...، حتى المغرب الأدنى. والطريق الثاني من أودغست الى المغرب الأدنى، ماراً بـ مدن سجلماسة، ولطه، و... و... والقيروان، وقسطيلية أخيراً^(١٥٢). والحقيقة أنه ما من دراسة لانتشار الإسلام في غربي إفريقيا والطرق البرية التي انتشر عبرها إلا وتعتمد على مشاهدات ونقولات ابن حوقل، فتشير إليها^(١٥٣)، وبالطبع مع الإشارة إلى غير ذلك من المصادر.

(١٥٢) عن هذين الطريقين تحديداً، أنظر، ابن حوقل: نفسه: ٨٩ - ٩٠، ٩١ - ٩٢.

(١٥٣) أنظر قبل، الحاشية، رقم ١٤٤.

نماذج من الجغرافيا البشرية

كنا قد أتينا بتعريف الجغرافيا البشرية، وعرفنا أنها إحدى أقسام الجغرافيا الرئيسية، وأنها تضم عدة فروع منها: الجغرافيا الاقتصادية، والجغرافيا الاجتماعية، والجغرافيا السياسية، والجغرافيا الطبية، وما إليها. وفي الحق فإن الجوانب التي تنضوي تحت الجغرافيا البشرية، كما عرّفها معجم المصطلحات الجغرافية^(١٥٤)، جوانب كثيرة، ومتعددة تعدداً لا نستطيع أن نتبعها جميعاً هنا. هذا شيء، والشيء الثاني أننا تحدثنا عن الجغرافيا الاقتصادية، أغزر جوانب الجغرافيا البشرية على الإطلاق، وأكثرها أصالة جغرافية. والشيء الثالث أنه يبدو لنا أن الفروع التي تنضوي تحتها الجغرافية البشرية - عدا الجغرافية الاقتصادية، وبدرجة أقل الجغرافية السياسية - ليست حقلاً معرفياً جغرافياً أصيلاً، بل لعلها أقرب إلى علوم أخرى، مثل علم التاريخ والنظم الإسلامية، وعلم الاجتماع، وعلم الطب، والإدارة والاقتصاد، وأدب الرحلة. أقول أقرب إلى هذه العلوم منها إلى علم الجغرافيا.

لهذه الاعتبارات من نحو، ولأن البحث مخصص للحديث عن الرحلات الجغرافية لابن حوقل في الجناح الغربي للدولة الإسلامية من نحو آخر، ذهبنا - ولسنا ندري إذا كان ذلك صواباً أم لا ؟ - إلى عدم الوقوف عند جوانب الجغرافيا البشرية في رحلات ابن حوقل طويلاً، ولا سيما ما يتصل منها بتلك العلوم التي ذكرناها سابقاً.

وحيث قد وصلنا لهذا التوضيح، فلا بد من التذكير مرة أخرى بالاتجاهين اللذين ظهرتا في مادة الرحلة الجغرافية للجناح الغربي للدولة الإسلامية لدى ابن

(١٥٤) أنظر قبل، الحاشية، رقم: ٥١.

حوقل، وهما اللذان سارا جنباً الى جنب، أي الاتجاهات الجغرافية الاقتصادية، والحيوية، والطبيعية، والجنسية، ثم الجغرافيا الإدارية، وقضايا أدب الرحلة المتعددة المناحي، سواء كان ذلك فيما يتصل بالإنطباعات، أو الملاحظات المباشرة، أو المواقف التي مر بها الرحالة، وآرائه السياسية، والمذهبية، أو غير ذلك، مما يدخل في إطار أدب الرحلة كما ذكرنا^(١٥٥).

أما الإتجاه الأول، فقد استعرضناه مع ابن حوقل بالصورة التي مرت بنا سابقاً. وأما الإتجاه الآخر، فنحن وإن كنا لن نقف عنده، إلا أن هذا لا يمنع من الإشارة الى جهد ابن حوقل فيه، وإبراز صفة الرحالة عنده. والحق أن مادة أدب الرحلة عند ابن حوقل قد تعددت وتنوعت، فمن الحديث عن الخراج والجبايات، أو الموارد المالية^(١٥٦) للجناح الغربي للدولة الإسلامية، إلى القراءة التاريخية أو السرد التاريخي لحوادث سياسية معينة في المغرب والأندلس^(١٥٧)، إلى القراءة أو السرد التاريخي للصراع المذهبي بين المذاهب الفقهية، والمذاهب السياسية الدينية في المغرب^(١٥٨)، إلى الآراء السياسية والميول المذهبية عنده^(١٥٩)، إلى ذكر لبعض

(١٥٥) أنظر قبل، ص: ٣، ٥، ٩.

(١٥٦) لا يمكن حصر كل الصفحات التي وردت الإشارة فيها إلى الموارد المالية، ولكن نكتفي فقط بأهم الإشارات في الصفحات، ص: ٧٠، ٧١، ٩٤، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨.

(١٥٧) نكتفي من تلك الحوادث والقراءات التاريخية بأهمها، مثلما ورد في ص: ٧٣ - ٧٤، عن قضاء الخليفة الفاطمي المنصور على ثورة أحد زعماء الخوارج ويدعى أبا يزيد مخلد بن كيداد، وص: ١٠٣ عن حال بلاد المغرب في ظل حكم نائب الفاطميين، يوسف بن زيري بن مناد جد الأمراء الزييريين أو الصنهاجيين الذين استقلوا بعد ذلك بالمغرب.

(١٥٨) أنظر ص: ٩٠ (صراع مذهبي بين المالكية والشيعة الموسويين في بلاد السوس الأقصى بالمغرب الأقصى)، وص: ٩٣ - ٩٤ (صراع مذهبي بين الإباضية والمعتزلة في طرابلس). وكذلك ص: ٩٩ - ١٠٠ (صراع مذهبي بين الإباضية والمعتزلة في مدينة سجلماسة).

(٥٩) أنظر مثلاً، ص: ٧٣ - ٧٤ عن ارتياحه للقضاء علي ثورة أبي يزيد الإباضي، وص: ٧٩ -

٨٠ عن أله وحزنه عن وقوع مدينتي سبتة ومرسى موسى بيد الأمويين في الأندلس، والتعبير =

العادات الاجتماعية : الحسنة والسيئة^(١٦٠)، إلى الانطباعات الخاصة، إلى غير ذلك من جوانب التدفق الحيوي لأدب الرحلة عنده.

جغرافية المدن أو الجغرافية الحضرية^(١٦١) في مادة ابن حوقل :

سنكتفي وفق منهجنا الإنتقائي بذكر نموذج واحد من نماذج الجغرافيا البشرية، وهو ذلك المتصل بالجغرافية الحضرية أو جغرافية المدن، التي هي فرع من فروع جغرافية العمران. لقد رسم لنا ابن حوقل لوحة طريفة ورائعة لنموذج من نماذج التخطيط الحضري، وذلك عند حديثه عن المهن والأسواق في مدينة الخالصة بصقلية، وهو الوصف الذي يبين لنا إلى أي حد بلغ حجم مدينة الخالصة ونموها، عبر الحديث عن أسواقها الكثيفة. قال ابن حوقل : (وأكثر الأسواق فيما بين مسجد

= المهم جداً، وهو رغبته في عودتها بقوله عن مرسى موسى خاصة : (وكأنني بها راجعة إلى مولانا عليه السلام). ولم يجدد ابن حوقل اسم الخليفة الفاطمي، وإن كان يظن أنه الخليفة الذي دخل المغرب وعاش فيه إبان خلافته، وهو الخليفة المنصور. (٣٣٤ - ٣٤١هـ). وعن ضم الأمويين لهاتين المدينتين، أنظر عبد العزيز الفيلاي : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ص : ٦٥ وما بعدها، ص ١٤٧ وما بعدها. (١٦٠) أنظر ص : ٩٥ عن العادات الحسنة لأهل المغرب، والعادات السيئة - من وجهة نظره - التي أغرق في ذمها في حديثه عن أهل صقلية، ص : ١١٥ - ٢١٣. (١٦١) عرّف يوسف التوني : نفس المعجم السابق، ص : ١٥٧، جغرافية المدن أو الجغرافية الحضرية، بقوله : (هي فرع من جغرافية العمران، يدرس المدن من حيث موقعها وحجمها ونموها ووظائفها، وتوزيعاتها، وإقليمية المدن، وايكولوجيتها. ولهذا العلم أهميته الخاصة من الناحية التطبيقية، إذ تدخل بعض عناصره مباشرة في الجغرافيا التطبيقية والتخطيط الاقليمي).

ابن سقلاب، والحارة الحديدية: كسوق الزياتين بأجمعهم، والدقاقين^(١٦٢)،
والصيارقة، والصيدانة^(١٦٣)، والحدادين، والصياقلة^(١٦٤)، وأسواق القمح،
والطرّازين، والسّمّاكين، والأبزارين^(١٦٥)، وطائفة من القصّابين، وباعة البقل،
وأصحاب الفاكهة، والريحانيين، والجرّارين^(١٦٦)، والخبّازين، والجدّالين^(١٦٧)،
وطائفة من العطّارين، والجرّارين، والأساكفة، والدبّاغين، والنجّارين،
والغضائريين^(١٦٨)، والخشّابين^(١٦٩) خارج المدينة (وبيلرم طائفة من القصّابين
والجرّارين والأساكفة، وبها للقصّابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم

(١٦٢) الدقاق: الكثير الدق، وأما مادة: دَقَّ في اللغة، فهي الشيء صيرَه دقيقاً أو خسياً أو حقيراً،
ولعلهم الذين يدقون الحبوب والأرز وما إليها. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم
الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبع المكتبة العلمية، طهران، جزءان،
ج ١، ص: ٢٩٠.

(١٦٣) الصيدانة مأخوذ من الصيدان، الذي يعني تقطيع حجر الفضة الخام، وواحداته: صيدانة.
وقد يعني معنى الصيدلي في جمعه للعقاقير. أنظر ابن منظور: المصدر السابق، ج ٣، ص:
٢٤٦.

(١٦٤) الصياقلة: مفردها: صيقل وصقال، مأخوذ من فعل صقل: تجلية الشيء كالسيف والمرآة.
إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم الوسيط، ج ١، ص: ٥٣١.
(١٦٥) البزّار: بائع البزور. والبزور، مأخوذة من مادة بزور، وهي: الحب يلقى في الأرض
للإنبات.

(١٦٦) الجرّار: صانع الجرار. والجرة إناء من خزف، والجمع جرار.
إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم السابق، ج ٢، ص: ١١٦.
(١٦٧) الجدّال: بائع الجدال، والجدال: البلع إذا اخضر واستدار.
إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم السابق والجزء أعلاه، ص: ١١١.
(١٦٨) الغضار، مأخوذة من مادة: غَضَرَ: الجلد أجاد دباغته. والغاضر: الجلد الذي أجيد دباغه.
ولعل هذه هي المهنة المقصودة.

إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، ج ٢، ص: ٦٦٠.
(١٦٩) الخشّاب: بائع الخشب.

إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، ج ١، ص: ٢٣٤.

في المدينة برأس السباط، ويجاورهم القطنون، والحلاجون^(١٧٠)، والحذاؤون، وبها سوق صالح^(١٧١).

وفي اعتقادنا أن هذه المادة التي كتبها ابن حوقل بناءً على مشاهداته، تعد مادة جغرافية أصيلة، وذلك بإظهارها للنشاط السكاني، والنمو الاقتصادي لمدينتي: الخالصة، وبلرم أو بالرمو.

(١٧٠) الحلاج: من صنعه الحلاجة، والحلاجة، تخليص القطن من بذره، فهو محلوج.
إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، ج ١، ص: ١٩١.
(١٧١) ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٤.

الخاتمة

وبعد . هذا هو ابن حوقل الذي تعددت إهتماماته الجغرافية، فلبس رداء الجغرافي في أقطار معينة، عندما وصفها وصفاً جغرافياً أو وصف جغرافيتها الإقليمية، كأدق ما يكون، ونحى عنه هذا الرداء جانباً في أقطار أخرى، وارتدى ثوب الرحالة . ومع أنه ظهر بمظهر الجغرافي الأصيل الباحث عن مجالات الجغرافية الإقليمية التراثية في الأقطار التي ذكرناها فيما مضى، أي المغرب مثلاً، ثم السودان الغربي، إلا أنه لم يحفل بتتبع كل المجالات كما أوضحنا فيما سبق .

وعلى أية حال فإن ابن حوقل كان في المجالين اللذين طرقيهما موفقاً إلى حد كبير، وإن كان التوفيق قد خانته في مواطن، فلم يستنفر حاسته الجغرافية تماماً . ولكن بصفة عامة هذا لا يقلل من جمال وروعة اللوحة الطريفة التي رسمها للجناح الغربي للدولة الإسلامية .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- الأصطخري (ت ٣٤٦هـ).
(١) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، منشورات دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م.
البكري (ت ٤٨٧هـ):
(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا - من كتاب المسالك والممالك -، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، منشورات دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.
(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، منشورات وطبع دي سلان، الجزائر، ١٩١١م.
حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ):
(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات دار الفكر، بيروت، لبنان، (طبعة مصورة)، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ٦ مجلدات.
ابن حماد (ت ٦٢٨هـ):
(٥) أخبار ملوك بني عبید وسيرتهم، تحقيق ودراسة التهامي نكرة وعبد الحليم عويس، منشورات دار العلوم، الرياض، ١٤٠١هـ.
ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ):
(٦) صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
المقدسي (ت ٣٩٠هـ):
(٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، منشورات المكتبة الجغرافية بليدن، ١٩٠٦م.
ابن منظور (ت ٧١١هـ):
(٨) لسان العرب، منشورات دار صادر، دون سنة الطبع، ١٥ مجلداً.
ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ):
(٩) معجم البلدان، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٥ أجزاء.

ثانياً: المراجع العربية والمعرية :

إبراهيم طرخان :

(١) امبراطورية غانة الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

(٢) دولة مالي الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
إبراهيم مصطفى وآخرون:

(٣) المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبع المكتبة العلمية، طهران، جزاءن.

إحسان عباس:

(٤) العرب في صقلية - دراسة في التاريخ والأدب - منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥م.
أحمد رمضان أحمد:

(٥) الرحلة والرحالة المسلمون، منشورات دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، دون سنة للطبع.

أحمد مختار العبادي:

(٦) في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م.

آدم متر:

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام - تعريب محمد عبدالهادي أبو ريذة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، جزاءن.

إغناطيوس كراتشكوفسكي:

(٨) تاريخ الأدب الجغرافي العربي - نقلة عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

حسن إبراهيم حسن:

(٩) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨١م.

حسن أحمد محمود:

- (١٠) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، منشورات دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.
حسن حسني عبدالوهاب:
- (١١) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، ١٩٧٢م،
ط ٣، ٣ أقسام - القسم الثاني (ط ٢ - ١٩٨٢م).
خير الدين الزركلي:
- (١٢) الأعلام، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م، ٨ مجلدات.
سعد زغلول عبدالحميد
- (١٣) تاريخ المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩م، جزءان.
السيد عبدالعزيز سالم:
- (١٤) تاريخ المغرب الكبير - العصر الإسلامي - وهو جزء من موسوعة تتحدث عن بلاد المغرب في
العصور القديمة، والعصر الإسلامي، والعصر الحديث، منشورات دار النهضة العربية،
بيروت، ١٩٨١.
شوقي ضيف:
- (١٥) الرحلات، منشورات دار المعارف، القاهرة، مصر، دون سنة للطبع، ط ٣.
الشيخ الأمين عوض الله:
- (١٦) العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين: مالي
وسنغي. منشورات دار المجمع العلمي بجدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
صالح مفتاح:
- (١٧) برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر - رسالة ماجستير في
الأدب، مقدمة إلى كلية الآداب - قسم التاريخ - جامعة القاهرة، (لم تنشر بعد).
صلاح الدين الشامي:
- (١٨) الفكر الجغرافي - سيرة ومسيرة -، منشورات دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
عبدالله يوسف الغنيم:
- (١٩) مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع،
ط ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
عبد الرحمن حميده
- (٢٠) أعلام الجغرافيين العرب، منشورات دار الفكر، دمشق، ط ٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
عبدالعزیز بن عبد الله

- (٢١) تاريخ الحضارة المغربية، منشورات دار السلمي للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٦٣م، ٣ أجزاء.
عبدالعزیز الفیلالي:
- (٢٢) العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط ٢، ١٩٨٣م.
عبدالعليم عبدالرحمن خضر:
- (٢٣) أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم، منشورات مؤسسة تهامة، سلسلة الكتاب الجامعي رقم ٣٣، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
عمر رضا كحالة:
- (٢٤) معجم المؤلفين - تراجم مصنفی الكتب العربية، منشورات دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دون ذكر لرقم الطبعة ولا سنة الطبع، ١٥ مجلدًا.
فیلیب رفة وزمیلہ:
- (٢٥) جغرافية الوطن العربي - دراسة طبيعية واقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧١م.
محمد ضياء الدين الرئيس:
- (٢٦) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، منشورات دار الأنصار، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٧م.
محمد عبدالله النقيرة:
- (٢٧) التأثير الإسلامي في غربي إفريقية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
محمد عبدالغني مسعودي:
- (٢٨) إفريقية - دراسة شخصية الأقاليم، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.
محمد عبدالوهاب خلاف:
- (٢٩) قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري - الحياة الاقتصادية والاجتماعية، منشورات الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
محمد محمود محمدین:
- (٣٠) التراث الجغرافي الإسلامي، منشورات دار العلم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
نفیس أحمد:
- (٣١) الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي - ترجمة فتحي عثمان، منشورات دار القلم، الكويت، ط ٢ ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
نقولا زیادة:

- (٣٢) الجغرافية والرحلات عند العرب، منشورات دار الأهلية للنشر والتوزيع، دون سنة للطبع ولا مكان للطبع.
- (٣٣) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦ م.
- يسري الجوهرى :
- (٣٤) جغرافية المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١ م.
- يوسف التونسى :
- (٣٥) معجم المصطلحات الجغرافية، منشورات دار الفكر العربي، دمشق، ١٩٧٧ م.

(٣٣) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦ م.

يسري الجوهري:

(٣٤) جغرافية المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١ م.

يوسف التونسي:

(٣٥) معجم المصطلحات الجغرافية، منشورات دار الفكر العربي، دمشق، ١٩٧٧ م.